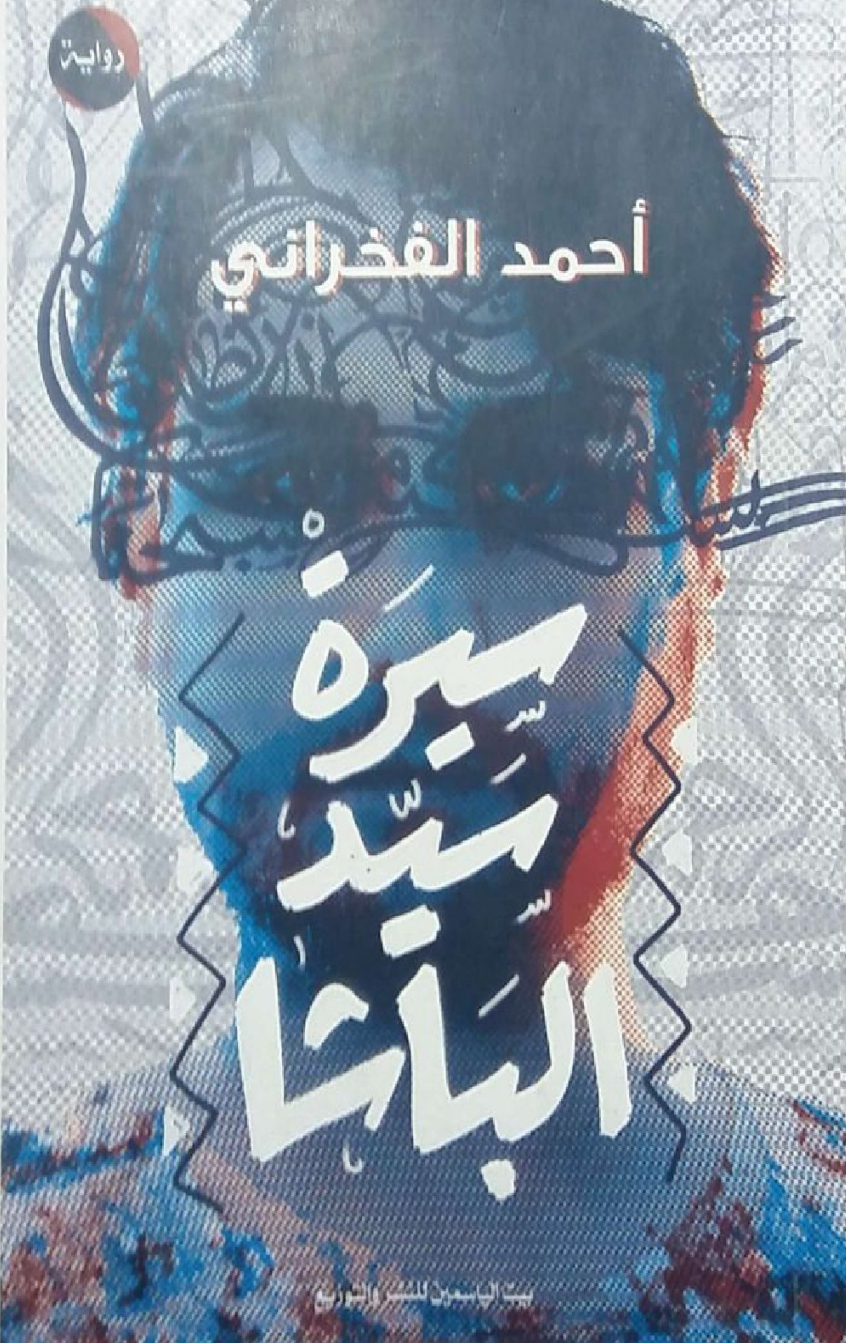

رواية
أحمد الفخراني
سيرة سيد الباشا
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

أحمد الفخراني

سيرة سيد الباشا

رواية

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثاني شقة 3
53 ش خيرت - ميدان لاظوغلي عابدين
جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني:
ziadibrahim_2008@yahoo.com
ziadibrahim1979@gmail.com
Baitelyasmin@yahoo.com
Baitelyasmin@gmail.com

تليفون:-
(+202) 27949885
(+2) 011100 94 62 5
(+2) 010166 85 58 3

اسم الكتاب:
سيرة سيد الباشا (رواية)
المؤلف: أحمد الفخراني
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
2016/21076
الترقيم الدولي:
978-977-817-006-1
حقوق الطبع محفوظة.
الطبعة الأولى 2017.
الغلاف لـ عبد الرحمن الصواف
تصحيح: محمد حمدي أبو السعود

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق.

كل ما يرد داخل هذا الكتاب من آراء أو أفكار هو مسؤولية الكاتب وحده، ولا يعبر بالضرورة عن التوجهات والسياسة التحريرية للدار.

إهداء.. إلى هاني درويش

«الحفل.. احتمال أول»

تتبع الرائحة، من شارع إلى شارع، من ثقب إبرة إلى طريق متسع، ومن طريق متسع إلى ثقب إبرة. من وقت إلى آخر تظهر جرادة، تومض فتختفي وتختفي فتومض كهلوسة، فيعرف سيد الباشا أنه في الاتجاه الصحيح.

عند مطعم كشري كتب على واجهته «الإمبراطور»، ارتعش ضوء اللافتة النيون ثلاث مرات قبل أن يغير ألوانه من الأزرق إلى الأحمر إلى البرتقالي. سيدلف سيد الباشا إلى المطعم. تلك هي الإشارة. لا يعرف تحديدا لم طلبوا منه أن يجيء إلى هذا المكان. كان قد سمع من خلال نميمة زملائه، أنه لا أحد يدعى إلى هناك إلا لأمر جلل.

جلس على الطاولة. تساءل هل هناك احتفال ما؟ مكافأة ؟ كانت المرة الأولى التي يزور فيها هذا المكان بعد عشر سنوات من العمل الجاد منذ اكتشف قدره وموهبته، ومنذ عمد ليؤدي مهمته المصيرية والدقيقة.

هل يحصل أخيرا على لقب: مشاء عظيم؟ هل يترقى ليلاقي السادة الذين سمع عنهم ولم يقابلهم قط؟ أم يقتصر الأمر على تلقي أوامره الجديدة لخطة عمل العام؟ كان ذلك يحدث من وقت إلى آخر، لكن «الإمبراطور»؟ ذلك يفتح الاحتمالات لأمور أخرى.

مكان عادي وضيق. مفارش متسخة. وجبات غير نظيفة. طاولات بقوائم متآكلة. زبائن يبدو عليهم الفقر والتعجل. يبدو كأي مطعم كشري غير مميز.

لم يحب سيد الباشا الكشري في بداية حياته. لكنه منذ علم أهمية وقته وعمله الذي يستوجب دائما البقاء في الشارع، قبل أن يحصل على ترقية جعلته يقود فرقة كاملة من مكتب مكيف، تعلم أن يأكل الكشري. فهي الوجبة الأسرع. لا تتطلب انتظارا، من ثلاث إلى خمس دقائق على أقصى تقدير. أحبه وتعلم أهم دروسه، أن الإنسان يستطيع بالعادة أن يتكيف مع أي شيء، تماما كما اعتاد هذا الكرش الذي سببه الكشري والمأكولات السريعة. كرش بدأ صغيرا وانتهى إلى استدارة كبرى مميزة.

رفض سيد في البداية كل إشارة ساخرة إلى كرشه نافيا أنه يحمل واحدا. طور آليات كثيرة لمقاومة السخرية كالإشارة إلى كرش الساخرين منه، بعد أن لاحظ أن الإنسان لا يرى كرشه بينما يرى بدقة كرش أخيه. كما عمد إلى السخرية من العيوب الجسدية الأخرى كالصلعة أو الأنف الكبير أو الأذن الطويلة أو عيوب خلقية كالإصبع الزائد. ملاحظة تلك الأشياء الخارجة عن النسخة المثالية للإنسان جزء من عمله. لكنه مع الوقت بدأ بالاعتراف بكرشه. اعتبر ذلك علامة نضج. خاصة بعد أن أحبه باعتباره جزءا من جسده. لكن ذلك لم يمنعه من رؤيته في أجساد الآخرين.

جلس سيد الباشا على طاولة كأي زبون عادي. طلب كشري بالكبدة (الفياجرا) كما تشير القائمة، وهو كود يعني الحجم الوسط الذي اعتاده. غالبا كان يذهب إلى أماكن أخرى لتلقي أوامره الجديدة. لو كان الأمر يقتصر على الأوامر فليس عليه إلا

انتظار الإشارة: سيأتي رجل ما، نظيف كالماء، لا خطأ فيه. بلا كرش، أو صلعة، أو ندبة. وسيم، طويل القامة، بقوام رياضي. يتغير الرجل في كل مرة ولا تتغير صفته كشخص لا عيب في جسده. المثال الحي لما يجب أن يكون عليه الكائن، كما تنص قوانين عمله.

سيجلس الرجل الكامل بجواره. سيمسك معصمه لثوان، لينقل إليه مهارة جديدة وعددا من الأوامر.

ليست تلك هي الطريقة الوحيدة التي يتلقى بها سيد الباشا أوامره. أحيانا تأتيه مشفرة عبر رسالة موبايل، أو ككود يملك مفتاحه في إعلانات قنوات المولد ودوم تك وشعبيات وتاكسي السهرة. يؤمن سيد الباشا أن فكرة نقل الرسائل عبر الإعلانات هي في الأساس فكرته، وسرقها منها مديروه.

العادة السنوية لنقل الأوامر عبر المعصم، لا تتم إلا لنقل ما يكون هاما وحاسما وعظيما لدرجة تحتاج إلى لقاء شخصي.

لا يحتاج سيد الباشا إلى إشارات كثيرة. موهبته في اكتشاف الخطأ تكفيه. اكتشاف نسبة غرابة الأطوار في الشخص هو موهبته وقدره. ينتصب قضيبه على قدر تلك النسبة.

الشخص الذي لا عيب فيه لم يأت. من جلس بجواره رجل نتن الرائحة، قصير، شعره أشعث، مترب، يحمل كرشا أضخم من كرش سيد، يرتدي تي شيرت متسخا وبنطلون قماش ممزقا، تتساقط من فمه ريالة تؤطر لمجنون تقليدي.

«من أجل وجود أشخاص كهؤلاء بيننا يعمل المرء بإخلاص» قال

سيد الباشا لنفسه. عندما جاءه العامل بطبق (الفياجرا) طلب منه طرد المجذوب. لكن العامل تجاهل طلب سيد وانحنى أمام الرجل الأشعث.

ندم سيد الباشا على تأففه. بدا عليه الخوف. علم أن من طلب طرده الآن هو الشخص المسؤول عن إعطائه مهارة جديدة وأوامر العام.

نظرة المجذوب طمأنته أنه يتفهم. أعطى المجذوب إشارة بيده للعامل، فضغط على زر قلم يحمله. أغلق باب المطعم. تغير كل شي في أقل من نصف دقيقة من مطعم كشري إلى قاعة مؤتمرات بدأت في الاتساع. الزبائن تحولوا إلى حراس آليين. مرقت طائرات في حجم الكف لتمشط المكان.

***

انكشف المكان عن مسرح محل المطبخ. كيف اتسع بهذا الشكل؟» تساءل سيد وهو يراقب تمدد محل الكشري إلى قاعة مؤتمرات.

المجذوب ارتدى ملابس رسمية نظيفة. ذلك الوجه مألوف. رآه من قبل، لكنه لا يتذكر أين أو متى أو من هو صاحب الوجه.

في أقل من دقيقة امتلأ المكان بالضيوف. عرفوا أماكنهم إلى المقاعد بنظام عسكري دقيق. سيد كان تائها، متجمدا في مكانه. أحد الحراس سحبه من ذراعه، أجلسه في مقعده بعنف. سأله سيد: ما الذي يحدث؟ لكن الحارس تجاهله تماما وأتم عمله.

جلس سيد الباشا محرجا وغاضبا بعض الشيء من القميص والبنطلون الجينز والكوتشي المترب الذي يرتديه، ملابسه بدت مبتذلة وسط كم الملابس الرسمية التي تملأ القاعة.

سيدة أربعينية على يمينه كانت تتأكد في مرآة أن الماكياج في وضعه الصحيح. بينما على يساره رجل ملتح يعيد تسميع قصيدة ألفها. حاول سيد أن يفهم من القصيدة سبب المناسبة، لكن الغمغمات التي وصلته من القصيدة كانت تنطبق على أي شيء. سأله سيد : ماذا يحدث؟ نظر الملتحي إلى ملابس سيد الباشا الكاجوال باستعلاء، ثم قال: لا أحد يعرف. ثم أشاح بوجهه ممتعضا مواصلا غمغماته للتأكد من حفظه للقصيدة.

كان المجذوب يتحرك بين الحضور، يتمم على تفاصيل دقيقة وطريقة جلوسهم والتزامهم. أشار إلى سيد بالقدوم. تحرك سيد نحوه. أمره: اتبعني.

تبعه سيد عبر ردهة طويلة على حوائطها بورتريهات لوالت ديزني، محمد علي، توماس أديسون، آينشتين، مارلون براندو، شارل ديجول، هتلر، جيفارا، بوب مارلي، الحاكم بأمر الله، شارلي شابلن، جمال عبد الناصر، سعاد حسني، وآخرين مشاهير وآخرين غير معروفين للعامة، لكن سيد يعرفهم جيدا، بل يحفظ سيرهم عن ظهر قلب.

من هؤلاء تعلم كل شيء عن مهنته وأهميتها ودقة عملها، وأضاف إلى سيرهم طريقته واكتشف طرقا جديدة، دون أن يخرج

على القواعد أو الغايات التي رسموها. المجذوب لاحظ توقف سيد مبهورا أمام صورة والت ديزني.

والت ديزني، المشاء الأعظم. مثل سيد الأعلى، تحقيق نسبة من مجده هو طموح سيد النهائي. الرجل الذي أسس عالما دون موهبة سوى اصطياد المواهب. ميديوكر أصلي. رغم ذلك نجح في تخطي كل شيء، والسيطرة على العالم بضبط إيقاعه عبر الشخصيات التي أنتجتها مؤسسته. وعندما مات ظاهريا أمام العامة نجح في السيطرة على الكيان العظيم، الذي ينتمي له سيد كورقة في شجرة وارفة: مديرا لهيئة الأمن القومي للكوكب.

سيد الذي درس سيرته جيدا، يعلم أن ديزني لم يحقق ذلك من فراغ، بل لكونه مؤسس النمط. نازع الوحشية والصفات الأصلية للقصص الشعبية التي كانت تعبر عن غرائز الإنسان، محولها إلى قصص لطيفة منزوعة الناب، تنشر الطاعة.

يعلم الكل أن ديزني سيظل سيدا لهذا الكيان لفترات طويلة. تحدث انتخابات كل عدة سنوات، لكن ديزني حولها إلى لعبة يربحها بسهولة تدخينه سيجارة.

صورة محمد علي استولت على انتباه سيد الباشا. بدا فيها حيا أكثر من اللازم وهو يأكل السوشي ويشرب الريد بول. لاحظ سيد أنه يرتدي بنطلون شارلستون الذي اشتهر في سبعينات القرن الماضي. كان كمن يدعوه لدخول اللوحة.

نبه المجذوب سيد إلى تأخره. قال سيد: إنه يناديني. رد المجذوب

بحسم: يوم كهذا استثنائي في حياتك، لا يليق أن تفسده بالتلكؤ.

أصابت الجملة الأخيرة مكانها في نفسه .الإشارة واضحة. الترقية قادمة. هكذا يحدث الأمر إذن. هناك حفل لتكريمه، سيصبح أخيرا مشاء عظيما. سيجني ثمرة عمله الجاد والمخلص طيلة عشر سنوات».

ابتلع سيد فرحته، وسار خلف المجذوب.

وصلا إلى مكتب صغير، أثاثه بسيط. لم يتوقع سيد هذا، كان ينتظر شيئا أكثر فخامة يليق بالحدث. لم يكن المكتب سوى غرفة تضيئها لمبة واحدة، بها طاولة بمقعدين عليها مزهرية ومطفأة.

أشار المجذوب لسيد بالجلوس. تردد قليلا. غرف كتلك تؤسس لانتزاع اعتراف، للتعذيب لا التكريم.

لكن المجذوب الذي أظهر أنه حكيم أيضا، لامَ سيد: «للمرة الثانية تخدعك المظاهر. من غرف كتلك يدار العالم، وتوضع خططه».

جلس سيد في مقعد مقابل للمجذوب. الدقائق مرت ثقيلة عليه في مواجهة صمت مستضيفه، فقط عينان مسمرتان تجاهه.

نظرات المجذوب الثابتة والخاوية بدأت في اتخاذ معان ما، تتغير معها إضاءة العينين. كانتا تلومانه على شيء ما، تجلدانه، ثم انتهت بإضاءة العينين الخاصة بالعتاب.

«هذا الرجل يعرفني» فكر سيد. تأكد شعوره أنه رآه من قبل. لكن أين؟ كل ما أدركه أن تلك النظرات أشعلت في صدره شيئا قابضا ومؤلما.

دخل قزمان يحملان بذلة رسمية. فهم سيد أن عليه ارتداءها

لحدث عظيم، ربما كترقيته إلى مشاء عظيم (م. ع).

القزمان نظرا إلى المجذوب، الذي قام من مقعده دون أن ينبس بحرف، لكن على شفتيه ارتسمت ابتسامة تشف، لم تخطئها عين سيد الباشا. لم يغادر المجذوب الغرفة بالتبجيل الذي توقعه سيد، بل سلم يديه وقدميه إلى أغلال وضعها القزمان. هتف قبل رحيله مقيدا: المجد للكسم.

تعرقت جبهة سيد الباشا. ثمة شيء قارب على فهمه. شيء يثير المغص. لم يمسك به تماما. ثمة خطأ ارتكبه، لكنه عاجز عن التفكير. كل ما يحتاجه هو أن يهدأ فقط.

ثوان مرت كدهر قبل أن يبدأ في إدراك الآتي: المجذوب محض سجين هارب. رجل غريب الأطوار كان عليه أن يكشفه، لا أن يتبعه. كان عليه أن يدرك ذلك منذ اللحظة الأولى.

هل يحرم من الترقية؟ هل يسوء الأمر أكثر فيعاقب؟ تساءل. فكر: «لا، لو كان ذلك اختبارا فقد كشفته منذ اللحظة الأولى. انحناءة العامل للمجذوب، هي ما جعلتني أتردد في تصنيف الرجل. كنت أتبع الأوامر، مهما كانت درجة شكي، وانحناءة العامل وتبجيله للمجذوب، لم تكن بشكل أو بآخر سوى أمر مستتر بأن هذا الرجل منهم وأن علي أن أكذب حدسي وموهبتي في اكتشاف غرباء الأطوار، إيمانا بالأوامر، لم أخطئ في شيء».

هذا السيناريو الافتراضي، فتح له نافذة لهواء الطمأنينة: «الأمر

كله كان خطأ من العامل، الذي انحنى لشخص لا يستحق. هم تداركوا الخطأ الذي حاول المجذوب التمادي فيه، وأتوا لإنقاذي من تتبعه، ربما يعاقب العامل الآن بصحبة المجذوب».

لم ينغص هذا السيناريو المريح، سوى تلك النظرة المنتصرة والمتشفية في عيني المجذوب. لكنه قال لنفسه: «لو كان هناك شيء خاطئ، لكانت يداي في الأغلال معه الآن. ذلك أمر حاسم».

ارتدى البذلة الرسمية التي أحضرها له القزمان دون مرآة. لم يجد واحدة. لكنه شعر أن شيئا ما قد تبدل فيه. ربما شعور بالفخامة والعظمة التي تنتظره بعد دقائق، ليتحول من «مشاء» إلى «مشاء عظيم».. الخطوة الأولى في الطريق ليصبح واحدا من المشائين العظام بألف لام التعريف.

كان يشتهي مرآة عندما دخل القزمان مرة أخرى. قاداه إلى «الطريق إلى العظمة»، حيث الاحتفال. كان الشعور بالعظمة وقربها يمتلك جوراحه. يشم ريحها وهو يعبر الردهة. غمز له محمد علي الذي انتهى من وجبته وبدأ في شرب الزجاجة الرابعة من الريد بول.

أجلسه القزمان في مقعده السابق. اختلف تعامل الملتحي الذي كان يحفظ قصيدة «تصلح لكل شيء». اختفت نظرات التأفف من عين السيدة الأربعينية التي تتأكد طيلة الوقت من وضع الماكياج. لقد صار «رسميا» مثلهم.. لا .. لا.. بل هو نجم اليوم، ومحوره وسبب سريانه. لذا قرر أن يضبط «تون» العظمة بداخله، تلك التي تنتظره الآن، في طريقة جلسته ونظراته.

حـاول أن يتخيـل الطقـوس القادمـة للترقيـة نحـو العظمـة. هـل سـيمنحونه شـهادة مثـلا أو درعـا إضافـة إلى وشـم «م. ع» فـوق ذراعـه يرمـز إلى كونـه قـد أصبـح مشـاء عظيـما؟

***

رفـع السـتار. اللحظـة التـي يتقلـب عـلى جمرهـا سـيد الباشـا، تقترب. التصفيـق الحـماسي اشـتعل في القاعـة كعدوى.

انكشـف المـسرح عـن فرقـة باليـه روسـية تـؤدي فقـرة مـن بحـيرة البجـع، التـي كانـت موسـيقاها مفروضـة عـلى المشـائين كعلامـة عـلى عظمـة ذوقهـم.

أحـب سـيد تلـك الموسـيقى دومـا. ليـس لعظمتهـا، هـو لم يفهمهـا قـط، بـل لكونهـا علامـة واضحـة عـلى الطريـق الـذي عليـه أن يسـلكه ليصـير مشـاء عظيـما.

انتشـاء سـيد بالموسـيقى، لا يعنـي أنهـا كانـت كل مـا يشـغل بالـه. كان يشـعر بالإحـراج دومـا مـن القـوام الـروسي للراقصـات. يوقظـن فيـه مشـاعر متناقضـة. فهـن مـن ناحيـة جميـلات جـدا، لكنـه كان يتعجـب دائمـا مـن عـدم قدرتـه عـلى اشـتهائهن. لا يعـرف إن كان بياضهـن الشـديد هـو السـبب أو شـدة الجـمال، الطـول الفـارع الـذي لـن يسـتطيع امتلاكـه جسـد قصـير معنـون بكـرش كجسـده. أحيانـا يعلـل الأمـر ببرودتهـن المتخيلـة في ذهنـه، فهـو لم يجربهـن ليحكـم. يفكـر في عشـيقته يوليـا. كان يسـألها كيـف أحبتـه بكـرش كهـذا

وجسد كهذا. لم تكن تجيبه. كانت تغمسه في مزيد من الحب، فيتوقف عن التفكير.

الانتشاء بالعرض، بلغ برجل «القصيدة التي تصلح لكل شيء» حدا مؤسفا، عندما بدأ في تطويح ذراعيه ورقبته كمريد في حلقة ذكر، مرددا: «الله حي.. الله حي». تأفف الحاضرون من تصرفه. لم ينزل الرجل من عليائه حتى وهو محمول على أعناق الحراس إلى مصير مجهول. يعلم سيد أنهم لن يكتفوا بطرده.

واصل العرض سلامه لفترة. لكن الرجل المطرود لم يكن آخر المفاجآت بل أولها. فموسيقى بحيرة البجع المقدسة تحولت فجأة إلى «شكشك مرزوقة تعالي جنبي». الأداء الراقي لراقصات الباليه تفاعل مع الأنغام الجديدة، ليؤدين الرقصة الجديدة، بدا ذلك كجزء من العرض.

درجة التأفف جعلت الهواء خانقا. أجساد الراقصات توقفت فجأة، كن محض آلات لا راقصات حقيقيات. كان محقا بشأن عدم قدرته على اشتهائهن. خلفهن ظهرت شاشة عرض، ظهر فيها شخصا يحمل لافتة كتب عليها: المجد للكسم.

سمع سيد همهمات أخبرته أن ذلك الشخص هو مخرج العرض، الذي رتب هروبه قبل أن يلقي بقنبلته.

السيدة الأربعينية بجواره اختفت. لاحظ أنها رقصت بانفعال مع «شكشك مرزوقة تعالي جنبي». خمن أن سيناريو اختفائها متعلق برقصها غير اللائق. أغلق الستار. تعالت الصيحات والأحاديث الجانبية. «كارثة في يوم تكريمي»، قال سيد لنفسه.

صوت أنثوي رخيم تراوحت نبرته بين التهدئة والتهديد، طالب الجميع بالتزام الهدوء، مؤكدا أن ما حدث خطأ غير مقصود، وسيتم تداركه وأن الحفل مستمر.

الغمغمات انتهت فورا عقب انتهاء الرسالة. مر الحراس مرة أخرى على المقاعد للتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

***

رفع الستار مرة أخرى. رأى سيد بيضة كبيرة مزينة برسومات ساحرة من قصة سنوويت تتدلى من سقف المسرح ببطء. بدأت البيضة في التشقق، لتندلع عاصفة من التصفيق الحار بالقاعة، تصفيق أكثر صدقا تلك المرة، ومليء بالفخر. بدن سيد اقشعر تماما وهو يستوعب أن جزءا من أحلامه يتحقق الآن، فصفق بكل ذرة في جسده الذي اهتز بعمق، فما تنكشف عنه البيضة الآن لم يكن شيئا عاديا، بل والت ديزني، المشاء الأعظم. «وجهه يزداد بهاء عبر السنوات» قال سيد لمن بجواره، رغم أنها المرة الأولى التي يراه فيها.

فيما بعد، عندما يستعيد تلك الذكرى النادرة، سيرى ديزني «مجرد شخص بائس، غارق وراء ماكياج صاخب وملابس ملونة، لإخفاء موته عشرات المرات. لا يمكنني أن أزعم حتى أنه كان حقيقيا. السوس يأكل أطرافه، والديدان تتدلى من أذنيه وتثقب صدره».

لكن في تلك اللحظة التي نتحدث عنها الآن، لم ير سيد سوى الشمس، الأضواء الباهرة على المسرح، التصفيق الصادق

كشعلة تضيء الطريق نحو العظمة.

انحنى ديزني انحناءة مسرحية، طوح قبعته الملونة للجماهير العطشى. دارت القبعة في القاعة لتقذف بالهدايا: كتيبات تعليمية، أحد أسنانه المسوسة، سي ديهات لأعماله الكاملة، نسخ غير أصلية لأولى محاولاته لإنتاج فأر حملت توقيعه، أقدام أرانب لجلب الحظ.

كان من نصيب سيد الباشا: علبة فارغة. لكن سيد لم يهتم، بل زادت نشوته بالحصول على الهدية، فهي في النهاية هدية من الرجل الذي ألهمه القوة لتحمل مشاق الطريق الصعب نحو العظمة، والذي سيفني عمره ليقترب خطوة من أن يصبح مثله.

منح ديزني الإشارة للحضور بالهدوء والجلوس. انتهى هرج استقبال الهدايا فور الإشارة. عزفت فرقة وراءه، ليبدأ في الغناء «Be our guest» من فيلم الجميلة والوحش. ظهرت على المسرح فتاة تغطي عينيها بقناع وترتدي نفس ملابس «Belle» بطلة الفيلم، شاركته الغناء، انبهر سيد من قدرته على مجاراتها الغناء والرقص. ثم بدأوا في التنويع على أغنيات قديمة من أفلام ديزني.

عندما وصل ديزني للأغنية الختامية «I can›t wait to be your king» من فيلم الملك الأسد، أقسم سيد الباشا إنه المعني بتلك الأغنية، وإن عيني ديزني تخترقانه من وسط الحضور، وإصبعه الطائر يحلق فوقه.

انتهى استعراض ديزني بتحلق الراقصين حوله. التصفيق عاد بحرارة أكبر. سيد كان مبهور الأنفاس. ود لو صعد ولمس ديزني فقط، مخبرا إياه عن كامل ولهه. في تلك اللحظة كان سيد ليعتبر ذلك غاية

حياته وسدرة منتهاها، لو جاءه الموت الآن لصافحه بمودة وعاونه على مهمته. لمسه سيكون أكثر تكريما وأهمية من الترقية والتكريم.

لكن علينا أن نوضح أن كل تلك المشاعر الجميلة والفياضة، التي أحس بها سيد وهو منغمس في نشوة الجمع لحظة انتهاء العرض، لا تمثل حقيقة ما يريده فعلا، وتتناقض مع شعوره المرتقب بالعظمة، وما يحلم بالوصول إليه. فقط الأمور كلها اختلطت عليه وسط ذوبانه الإنساني في هذا التأييد اللانهائي، ورؤيته لمثله الأعلى رأي العين.

تلك المشاعر هي ما جعلت الصوت المعدني والآلي الذي تحدث به ديزني قائلا: «مرحبا بكم في هذا اليوم الاستثنائي» والذي كشف عن ثقب في حنجرته، لا يلفت نظر أحد أو يؤذي أذن أحد، بل هبط على قلب سيد وقلوب الحاضرين كصوت ينزع القلق ويبذر الطمأنينة في القلوب، حتى إن أحدا لم يفكر في أن الصوت الذي أشعل المسرح منذ قليل بالغناء، يحدثهم الآن عبر آلة في حنجرته.

واصل ديزني خطابه «كل من في القاعة اليوم هم محض جمهور، عدا واحد تم انتخابه بعناية من بين مشائي الشرق الأوسط، موهبة إعجازية، طورت من أداء الهيئة ومنحتها الإلهام».

قلب سيد تراقص، الدموع تقافزت من عينيه. كل كلمة ينطقها هذا الرجل، هي حلم، وسام، مكافأة على عشر سنوات من العمل الجاد والمخلص.

***

يبدأ سيد عمله كل يوم، من التاسعة صباحا حتى الخامسة مساء، بثبات لا يعرف «سهام التلفت» عندما ينتهي، يسجد شاكرا عون الله الذي منحه القوة لإتمام يومه.

في الخمس سنوات الأولى، كان عمله هو المشي. هدف المشي يتغير كل يوم. يصحو على رنة إس إم إس على هاتفه، تخبره بغايته وخريطة سيره. يفتتح يومه بأمر غير مفهوم عليه تنفيذه: اجمع علب الزبادي الفارغة، قارن بين عدد أغطية زجاجات المياه الغازية والكان، قم بعد أصحاب اللحى السنية، لحى جيفارا، الأحذية الجديدة، التقط صورة لمئة أنف، اجمع المباسم المبعثرة بجوار المقاهي، فرقع صاروخا كل خمسمئة متر من المشي، لا تجمع شيئا، ولكن أبقِ ذهنك مثبتا على كلمة «فاير» طيلة الطريق، اجمع كل ما يمكنك جمعه وأبقِ ذهنك فارغا طيلة الطريق، دوّن ملاحظاتك عن الأرصفة، خرابيش أعمدة الإنارة، دوّن ردود الأفعال إذا ما غمزت لشخص من بين كل مئة شخص تقابلهم.

كان ينفذ المهمة العجيبة كل يوم دون أن يفهمها، قبل أن يبدأ عمله الحقيقي: كشف غريبي الأطوار، موهبته هي انتصاب قضيبه كلما كانوا في الجوار.

سيبرع في ذلك، سيتفوق على المشائين الآخرين. في غضون خمس سنوات، سيحصل على ترقيته الأولى، بإدارة وتدريب مشائين آخرين، بل سيحمل المشروع إلى آفاق أخرى ستؤهله إلى تلك الترقية التي سيحصل عليها الآن. سيفهم حينها لما وجب عليه أن ينفذ المهمات

غريبة الأطوار، بينما عمله هو كشف غريبي الأطوار، سيعرف أن ذلك يدعى تدريب الطاعة، الذي يضمن ولاء المشائين كهدف أساسي، كما أنه يضمن تدريب المشائين على الأفعال الغريبة لتسهيل كشفها، كما تجذب تلك الأفعال شهية غريبي الأطوار للتعرف على المشاء، وتجعلهم أقل حذرا في اخفاء غرابتهم.

***

الفقرة التي تلت الاستعراض المثير كانت سلسلة خطابات مملة بدأها ديزني، ثم أعضاء نافذون في هيئة الأمن القومي للكوكب، منزوعو الكاريزما والشهرة كما حرص ديزني، لإحكام سيطرته على الهيئة.

كانت خطبا بلاغية تصلح لكل شيء ولأي مناسبة ولا تقدم جديدا كقصيدة الرجل الملتحي. لم يقتربوا حتى من ذكر غرض الحفل المرتبك وسيئ الإعداد، رددوا شعارات يحفظها كل مشاء عن ظهر قلب عن أهمية هيئة الأمن القومي للكوكب، كما مجدت ديزني بكثافة.

لكن خلف كل هذا اللاشيء، استطاع سيد أن يلمح شيئا ما قلقا في نبراتهم المحاربة بخدع البلاغة، استعراضا خفيا ضد عبارة «المجد للكسم»، دون أن يذكروا أنها المقصودة، يتخفون خلف رداء الأخلاق وأهمية محاربة البذاءة.

تلك العبارة كانت تربك سيد الباشا. كان أول من اكتشف منبعها وطارد كل من تفوه بها، ونبه إلى خطورتها. كانت تحرك بداخله شيئا مزعجا وسميكا، طرده كان ثقيلا وكابوسيا. كان يعرف

على عكس ادعاءات الهيئة أن العبارة أطلقت كمحاولة للثورة لا كمحاولة للبذاءة.

لم الثورة أصلا؟ يسأل نفسه. فكل شيء قريب من الكمال في حضرة هذا الكيان الوارف كشجرة ضخمة. ظل من لا ظل له. حيث كل شيء مفهوم وواضح وآمن. لا ارتباك أو أسئلة معقدة عبثية عن جدوى الوجود. هنا جدوى الوجود واضحة ومحددة ومعنونة كشمس.

نحن حماة العالم، قرنا الثور اللذان تتكئ عليهما مؤخرة الأرض لتحفظ اتزانها، كي لا يسيطر عليها غريبو الأطوار. نحفظ لهم النسبة الملائمة في الحياة. نقتل أغلبهم. من يحيا منهم نجعله محاصرا في دوائر الشك، النبذ، نجبرهم على ممارسة الطقوس والعادات بسرية. ندفعهم دون أن يشعروا إلى الجنون، أو تنفيذ ما يظنه الآخرون مجرد غرابة أطوار، بينما هي أفعال في صالحنا، معدة سلفا من قبل مخططين بارعين في الهيئة.

استعاد ديزني الميكروفون مرة أخرى بعد دورانه على الأفواه. هل حانت اللحظة؟ أم أن الأمر مجرد إفراط آخر في الطقوس.

«ذلك يوم استثنائي آخر في عملنا المقدس. يوم ترقية مشاء إلى مشاء عظيم»، قال ديزني.

«رحبوا معي بالرجل المختار لهذا اليوم، أحد أهم المشائين الموهوبين في الشرق الأوسط، الذي رغم صغر سنه، بلا بلا بلا.. .. وصل إلى مكانة لا يصل إليها أقرانه قبل الأربعين من

عمرهم على الأقل.. رحبوا معي بسيد الباشا».

التصفيق عاد مصحوبا تلك المرة بدائرة ضوء تتسلط على مقعد سيد الباشا. وجهه احمر خجلا، عيناه فاضتا بالدموع، الشجن استبد بكيانه وهو يحيي الجمع، فقط لأنه لم يعد يعرف طرقا ليست غريبة للتعبير عن مشاعره. ثمن السنوات العشر كان رخيصا مقارنة بتلك اللحظة. «من زرع حصد»، قال لنفسه، لم تكذب عليه كتب الوزارة، التي وضعها مشاؤون.

لكن ذلك ما حدث وسط لحظة الحصول على العظمة: شعر بثقل البول على مثانته كطوفان يرغب في الانطلاق. كيف يصعد إلى العظمة لو فعلها وبنطلونه غارق في النجس؟

حاول أن يخفي تلوّيه، سيتحمل قليلا ثم يتسلل مسرعا إلى أقرب دورة مياه، فكر.

دوما ما كانت عمليتا التبول والتغوط تشعرانه بالأسف. لِمَ يجب على المشائين، المختارين، حفظة العالم من نفسه، أن يبولوا؟ هل لو حصل على العظمة قد يتخلص من العادات التي قدر ما كانت تهدف إلى حماية الإنسان من سموم جسمه كانت تهدف أيضا إلى تذكيره بوضاعته؟ فالذكر الذي يتبول هو نفسه الذي يحوي سر خلقه وأسراره الكبرى.

«اصعد يا بني».. قال ديزني بصوته المعدني الحنون. صعد سيد وهو يعرج بما يحمله قليلا. عُزفت تلك الموسيقى الرخيصة التي سمعها سيد في عشرات الأفراح المنسوخة في أثناء هبوط العروسين

من سلم، والتي توحي كذبا بأن حدثا عظيما سيحدث.

استحوذت مقاومة جريان البول تماما على تفكيره ومشاعره وهو يقف بجوار ديزني، مثله الأعلى، حلمه الذي يتحقق في وقت غير ملائم.

كان عليه أن يلقي كلمة صغيرة. هكذا فهم عندما وجد الميكروفون بين يديه. لم يكن في رأسه متسع لشيء. مثانته كانت تملأ رأسه ، بصعوبة تفوه بكلمتين وهو يتلوى من الألم:

«شش.. كككك.. .. رااان.. لقدددد.. . حلمممممت .. كككث.. ثيرا ببهذه اللحظة.. . هل بإمكاني التبول لدقيقة واحدة ثم أعود».

الوجوم تسيد القاعة. ديزني الذي بهت من الرد حاول تجاوز الأمر بتربيتة على مؤخرة سيد الباشا زادت موقفه تأزما. ثم ضحك فضجت القاعة بالتبعية بالضحك. وجه سيد ازداد احمرارا. ثم صرخ: مش قاااااااادر.. ثم جرى من على خشبة المسرح، تاركا إياهم نحو أقرب حمام وسط دهشة الجميع.

ربما سمع ديزني يصرخ في الحضور وهو يدلف من القاعة: استكملوا الحفل، لم يحدث شيء، لم يحدث شيء.

***

قبل أن يصل سيد إلى الحمام، كان قد أفرغ حمولته، رغم قربه منه.

كان الحمام مباشرة أمام باب قاعة المؤتمرات، على خط مستقيم، أقصر الطرق بين نقطتين، كما علمته الرياضيات وسنوات المشي. لكنه

كلما سار باتجاهه ابتعد. لم يعرف في البداية أن الحمام يبتعد. ظن أنه مرهق قليلا من أثر استقبال العظمة وضغط المثانة في آن. لكن المشي طال، بدأ في الجري. الحمام واصل خداعه ومراوغته كسراب واستمر في الابتعاد حتى فعلها سيد، مفسدا حلته الرسمية لاستقبال العظمة.

توقف عن الركض. لم يبك. استقبل سخونة البول وسريانه في استسلام حتى انتهى كل شيء. قرفص على الأرض. كل ما يعرفه أنه لن يستطيع العودة مكتنزا بثقل البلل والرائحة.

لم يعلم إن كان ارتياح المثانة هو ما جعله ينظر بقوة إلى لوحة محمد علي. اتجه نحوها، ببطء بسبب البول العالق في ملابسه كطن حديد.

تذكر سيرة محمد علي كمشاء، والتي حفظها عن ظهر قلب من الكتيبات التي توزعها إدارة الاستعلامات في هيئة الأمن القومي للكوكب، سيرة أخرى غير التي يعرفها العامة:

«كان طفلا عاديا مجردا من أي هبة سوى القدرة على المشي الطويل بلا هدف أو غاية. حتى تم اختطافه، وتدريبه على أن يجعل لمشيه الطويل هدفا، لكن قدراته العقلية لم تسمح بذلك، فنزعت هيئة الأمن القومي للكوكب مقلتيه، وأبدلت مكانهما يويو يسمح بالسيطرة على خطواته.

لم يكن محمد علي ألبانيا، بل مصريا من قرية فقيرة، طفلا عاديا يلعب في منخاره ويأكل وجهه الذباب وينتظر الموت بمرض ما، أو النجاة كغبي جاهل، قبل أن نخترع له تاريخا جديدا، ساحرا.

لم يكن المصريون مستعدين لأن يولوا واحدا منهم، ولم نكن نرغب في ذلك. عطلنا لديه القدرة على التحدث بالعربية، عن طريق السحر، قبل أن نكتشف طريقة إنجاز أمور كتلك بالعلم.

حققت الخطة نجاحا عظيما. زرعنا قدرا هائلا من المشائين في مصر. أول مشائين حقيقيين، من خطوا كل طرق المعرفة والحقيقة التي سار عليها كل شيء فيما بعد. وضع هؤلاء المشاؤون بذور كتيب التعليمات الأولية في مصر والشرق الأوسط.

سار كل شيء بشكل رائع. كل ما حدث كان مدروسا، طموحه المفاجئ بالتوسع، وهزائمه. الحدود التي يجب أن يتوقف الآخرون عندها.

دربناه في قصر غير مرئي، أخفيناه فيما بعد على هيئة محل كشري «الإمبراطور».

كان هذا هو الجزء الذي ظن سيد أنه يحفظه عن ظهر قلب، أما الجزء الذي فاجأ ذاكرته الآن:

«من القصر المخفي خرج وإليه عاد، وحيدا وحيا داخل لوحة. مكتفيا بصمته وبشرب الكان وأكل الفضوليين في قضمة واحدة بعد شطرهم إلى نصفين».

تأمل سيد اللوحة من جديد. اقترب أكثر رغم التحذير، قبل أن يصرخ في الرجل الذي في اللوحة: أنت لست محمد علي.

قسمه الرجل في اللوحة بسيفه إلى شطرين، ابتلعهما في قضمة واحدة. رأى سيد نفسه داخل اللوحة عابرا جسد محمد علي الذي لم يكن محمد علي، مستجمعا شطري جسده مرة أخرى.

حاول أن يخرج من اللوحة. لم يستطع. لم يجد سوى ممر ضيق. مشى فيه حتى وصل إلى باب مغلق. طرقه. فتح له شخص عرف أنه خادم إنجليزي، متأنق ومتمسك بالقواعد القديمة للخدمة. دعاه الخادم إلى الدخول.

«الباشا في انتظارك»، قال الخادم.

تبع سيد الخادم. توقع سيد أن الباشا المقصود هو محمد علي. تخيله جالسا في مهابة على عرش يحمله العبيد ومحاطا بالجواري والخدم. لكنه لم يجد سوى مجذوب على كرسي خشبي كتب عليه بخط طفولي: العرش. قال للمرة الثانية: هذا ليس محمد علي.

مجذوب بوجه طفل، غير ملتح، تبدو عليه أمارات الحيرة والارتباك. يمسك بقطعة ثلج يتأملها باهتمام، ويدون ملاحظات ومعادلات.

رفع محمد علي رأسه للحظات. أشار له بالتقدم، ثم انهمك في فحصه لقطعة الثلج.

حاول سيد أن يحافظ على هدوئه وهو يقول: «أريد الرحيل». رد المجذوب دون أن يرفع رأسه: ثوان وسأتفرغ لك. مر وقت طويل دون أن يلتفت إليه محمد علي، انفجر سيد غاضبا: «لقد انتظرت عمري كله لأصير مشاء عظيما، يجب أن أعود».

ترك المجذوب قطعة الثلج. قفز من عرشه الخشبي. اقترب من سيد هامسا في أذنه: «لن يتذكروك، لقد فات الأوان، سيتجاهلون غيابك، كما تجاهلوا غياب المشاء الذي ابتلعته قبل دخولك

القاعـة، كان هـو المرشـح للترقيـة اليـوم لا أنـت، فعدلـوا الوضـع، كنـت مدعـوا كاحتياطـي لـه، تحسـبا، فأنـا أفضـل أكل المختاريـن لأيـام اسـتثنائية كهـذه. لـن يسـمح ديـزني لـشيء أن يشـوه الكـمال مـع اقـتراب انتخابـات الولايـة الرابعـة، لقـد شـطبوا اسـمك واختـاروا مشـاء آخـر للترقيـة، كأن شـيئا لم يكـن، لـو عـدت سـيطردونك».

صمـت سـيد مرتبـكا وعاجـزا، قبـل أن يلبـي نـداء محمـد عـلي مستسـلما: «اتبعنـي».

تبعـه حتـى وصـلا إلى حديقـة بـدت لعينـي سـيد لا نهائيـة. رأي فيهـا المشـاء الـذي ابتلعتـه الصـورة، بصحبـة مئـات المشـائين المفقوديـن.

كان المشـاء يمسـك بسـاعة حائـط ويـدون عليهـا ملاحظـات، ويتمتـم: أشـعر إني اقتربـت، سـأعرف كيـف يمكـن لي أن أشرب الوقـت.

قـال سـيد لمحمـد عـلي: أنتـم مجانـين. غريبـو أطـوار كهـولاء الذيـن نطاردهـم. سـأبلغ عنكـم. سـأقبل قـدم ديـزني. سـأمشي مسـافات أطـول مـن التـي مشـيتها مـن قبـل. سـأفعل أي شيء لتتـاح لي فرصـة أخـرى للحصـول عـلى الترقيـة ولـو أهلكـت عـشر سـنوات أخـرى.

محمـد عـلي تجاهلـه. أخـرج قطعـة الثلـج مـن جديـد، ثـم قـال لسـيد: أتعـرف؟ كانـوا يظنـون أني أحـارب كي أصنـع دولـة قويـة ومتمدنـة وفقـا لتعريفـات هيئـة الأمـن القومـي للكوكـب الـذي تمكـن مـن خـلالي مـن السـيطرة عـلى مصـير كل شيء عـبر قنـوات أسـهل ومخططـة سـلفا. كنـت أسـايرهم فقـط بحثـا عـن حـل اللغـز. أجلـب العلـماء الفرنسـيين، أرسـل البعثـات، الجيـوش، فقـط لأعـرف:

لم لا تـذوب قطعـة الثلـج تلـك. وجدتهـا وأنـا طفـل، ولم تفارقنـي أبـدا كـسري وظـلي. أرداوا الباشـا في اللوحـة، أعطيتهـم إيـاه، وواصلت طريقـي. أتعـرف؟ لقـد صرت مفتونـا بقطعـة الثلـج حـد أني لا أرغـب حقـا في حـل اللغـز، فعـبر اللغـز توصلـت إلى أشـياء أكـثر طرافـة عـن الكـون، لـو عرفـت الحـل لانتهـت المتعـة، ولِـتُّ حقـا.

كاد اليـأس مـن الرحيـل يفتـك بسـيد الباشـا. محمـد عـلي منحـه بصيصـا مـن الأمـل: أتريـد الرحيـل؟ اذهـب إلى صنـدوق العجائـب هـذا. تعـرف عـلى لغـزك، سـيناديك. إن حللـت اللغـز، سأسـمح لـك بالرحيـل.

لم يضـع سـيد وقتـا. ذهـب إلى الصنـدوق. كبـس زرا أحمـر. خـرج لـه لغـزه. أمسـكه. قلبـه باسـتهانة. ثـم قـال لمحمـد عـلي: لغـز تافـه.. سـأحله سريعـا وأرحـل.

قرفـص سـيد في الأرض وسـط مئـات المشـائين المفقوديـن، انهمـك في محـاول حـل لغـزه. عـاد محمـد عـلي إلى عرشـه الخشـبي، ليـدون ملاحظـات جديـدة عـن قطعـة الثلـج التـي لا تـذوب.

*****

الحفل كاحتمال ثان

وجدت نفسي فوق فراشي. أدخن سيجارة ويوليا المجنونة تتمرن على مص قضيبي.

صوت أم كلثوم يظلل الغرفة «كان صرحا من خيال فهوى». هل كان التعميد حلما؟ لا لم يكن. أعرف الفارق بين الواقع والحلم. لكن إن كنت على فراشي فكيف أجلس في نفس الوقت داخل لوحة محمد علي لأحل لغزا لا أتذكره؟

يوليا تمص وتلحس جاهدة لتطوير أدائها الفموي السيئ. دربتها على كل شيء، لكن هذا؟ لا تملك موهبته، رغم أنها عاشرت رجالا لا حصر لهم قبلي.

اللذة؟ أين ذهبت؟ لقد طارت كذبابة من فوق قضيبي. لا أثر لها. لكنها توخز جسدي من وقت لآخر. «أنا هنا» تخبرني اللذة. مستفزة وعصية على الإمساك. لا أريد الذبابة. أريدها ألا تخبرني أنها هنا، أن أوقد لها مصيدة تافهة، كما فعلت أنثاي التي تمص قضيبي الآن.

توقفت يوليا عن التدريب بعد أن قذفت، طلبت مني أن آتي لها بكيس المناديل الكلينيكس لتمسح به «شهدي» السائل فوق فخذها. فردت المنديل في هدوء، ثم انطفأ جسدها. لا حركة، لا صوت. حاكيتها: جسد خامد يدعي الموت، كنت أتفرج.

أرغب في قتل الذبابة. انتظرنا معا لحظات اطمئنانها إلى الخدعة. استقرت فوق منديل يمسح الشهد، ويقتل الذباب. ضغطت يوليا

عـلى المنديـل، سـحقت الذبابـة. ثـم انتهـى الأمـر إلى سـلة القمامـة: ذبـاب مقتـول وأطفـال محتملـون.

كنـت مبهـورا كطفـل مـن ذكاء يوليـا. صفقـت مرحـا مسـتعيدا النفس والحركـة. أنـت تعـرف، وأنـا أعـرف، أن قتـل الذبـاب بمصيـدة المنديـل الورقـي، ليـس ذكاء يسـتدعي الإعجـاب. لكـن أنـت تعـرف، وأنـا أعـرف حـال العاشـقين أو متوهمـي العشـق. أحدهـما مثقـل بالبحـث عـن اللـذة، وعشـيقته هـي المفتـاح والوعـد لغابـة لا يعـرف العاشـق إذا كان مـا يختبـئ وراء أشـجارها وحوشـا تسـلب الـدم والـروح أم جنـة دائمـة.

«أرغـب في شـهد» تقـول يوليـا.. طفلتنـا التـي نقتلهـا في كل مـرة نبحـث فيهـا عـن ذبـاب اللـذة بقـذف خـارج الهـدف. كل منـي مفقـود هـو أمـان، لكنـه عشـم خائـب، أمـل لا يتزحـزح، تقتلـه براكـين الشـك، اللايقـين. فقـط يوليـا تخـبرني: سـأمنحك فرجـي لـو آمنـت.

في الجسـد لا شيء. في الـروح لا شيء.. فـوق الحائـط.. لا شيء.. لكـن الذبابـة كانـت هنـا، تطـن، لا توقـن بمكانهـا إلا وهـي ميتـة ومسـحوقة.

لم أدخـل فرجهـا بعـد. سـكس مـن الخـارج. مـن حـدود فـرج تحـاول إقناعـي عبثـا أنـه بكـر. ذلـك مـؤلم لي ولخصيتـي. داعـب هـذا الفـرج رجـال لا يمكـن حـصر عددهـم بدقـة، لحسـوا ومصـوا، حركـوا قضبانهـم عـلى حوافـه جيئـة وذهابـا، دخلـوا مؤخرتهـا. أي معنـى للحفـاظ عـلى كونهـا بنتـا تحيـا بمهبـل مغلـق. تقـول إنهـا سـتمنحه لشـخص واحـد: أنـا. لكـن عندمـا أتوقـف عـن الشـك وأبـدأ في الإيمـان. حيـاتي كلهـا صـارت توقفـا دائمـا عـن الشـك وإيمانـا دائمـا، تطلـب منـي أن أسـتبدل

مواضع الشك بالإيمان ومواضع الإيمان بالشك.. أشك أصلا في كونها بنتا، أسخر في سري من جسد يدعي البكارة وقد خبر عشرات الرجال وخبروه. لماذا لا تجعلني أخترق ما ينير لأنير، لنطفو. نتوهم الإيلاج. أغرق في اللحس، بين فخذين هما العالم. ومهبل ينير كبركان. أفرك قضيبي بين نهديها، هكذا كنت أقذف.

كان جنسا رائعا وخالصا للذة، رغم كل شيء. لكن اللذة كشأن أي شيء في جسد رجل يستعيد الحياة عبر أنثى، تختفي وتطن، ثم تراها مسحوقة أمامك. تقول «لم أسعد مع رجل مثلما فعلت معك».. لا أرهق نفسي بالشك في أن عبارتها محض حيلة لتنسيني الأجساد الأخرى التي عبرت فوقها، كما أن عبارتها تسعد قضيبي، هبتي التي تنتصب على وقع جسدها وعلى غريبي الأطوار.

أتذكر زوجتي/ أنثاي التي لم تعرف أصلا رجلا سواي، عالمها الذي لا ينتظر أو يرى أحدا سواي، أحبها. أنحي شعوري بغثيان كوني قذرا وخائنا جانبا. خائن الجميع، الباحث عن سراب اللذة. سراب؟ .. الألم يوقظ الروح أكثر. ليس للذة صنو سوى الألم. أذلك حكم؟ لا أحكام.. الأحكام ذباب، يطير، يوخز، لكنها ليست إلا مجرد إزعاج آخر. يمكن سحق الأحكام على الآخرين ومواقفهم بمنديل كلينكس، إذا ما هدأنا تماما وسايرنا الهدوء بلا حزن أو فرح، ثم تخلصنا مما تبقى بعد القذف في القمامة.

لا أفكر هكذا عادة إلا وأنا في السرير مع يوليا. حياتي كلها عملي وموهبتي كانت إطلاق الأحكام على الآخرين، وضبط المتورطين

لضبط إيقاع العالم معها. لذا أطرد تلك الأفكار لأتمكن من مسايرة حياتي وعملي.

يتبقى الذنب. ليس ذنب ما بعد الجنس وحده. لكني خائن أيضا. زوج وأب محب، لا يعرف ما يريد. أتكلم كثيرا عن التخطيط للطيران بعيدا عن حياتي الحالية. لكن بلا إرادة حقيقية لتنفيذ ذلك.

أيهما أنثاي؟ يوليا أم زوجتي؟ هل هي من تنام في تلك اللحظة بعد أن قتلت ذبابة، خارج معادلات الذنب والأحكام، كأن العالم لا يخوض معارك، كأن لا براكين في الخارج، أو زلازل، أو جوعى، أو زوجة محبة مغدورة أو خائن مثلي لم يعد يعرف موقعه من حياته؟ أيهما أخون؟

أحاول أن أتوقف عن التفكير.. أقبلها في رقبتها، أحتضنها من الخلف، وأنام. ستوقظني ذبابة أخرى. هل أنجح في الطيران بعيدا عن حياتي الحالية. لكن الذبابة تطن: لماذا لا تحضنني من الخلف عندما أدير ظهري؟ هل أحضن الشر، الشيطان، أم حياة مغامرة واحتمالات أكثر جموحا وخيالا؟ .. أغفو مجددا بمني مهدور.

***

أفاق من غفوته، بعد أن ضربته تلك الرؤية. ربما هذا ما حدث حقا. الاحتمال الثاني للحقيقة:

عندما صعدت إلى المسرح لتكريمي وترقيتي، تحملت ضغط

المثانة ووقفت بشجاعة، ولم أجر إلى الحمام ولم أدخل إلى اللوحة.

يد والت ديزني التي أمسكت بشهادة التقدير. عمدتني لأصير مشاء عظيما. أضافت حرف «ع» الناقص إلى معصمي، كافأتني على موهبتي وسنوات العمل العشر، هيأتني لخطوة العظمة المقبلة والطريق إلى الخلود.

ممتلئ باليقين أن هذا هو ما حدث حقا. يقين تفتته ذكرى تبوله على نفسه، ولا يجعله يعرف حتى إن كان متزوجا حقا أم يخوض كل هذا بفتاة مجنونة.

ذات ليلة كنت متأكدا من كل شيء.. ثم لم أعد أعرف موقعي من الحياة إلا عبر احتمالات.

*****

سيد الباشا.. سيرة المشاء الذاتية
من العادية إلى العظمة

هكذا بدأت كمشاء. سأكون مباشرا. يكفي العالم متاهات.

هكذا سأنتهي كمشاء: سأصارع يوليا المجنونة للوصول إلى النسخة الأصلية من كتاب شمس المعارف. ليست النسخة التي تعرف باسم شمس المعارف الكبرى وتتحدث عن السحر، فتلك نسخة مزيفة أعدتها هيئة الأمن القومي للكوكب كخدعة بارعة.

كانت خدعتهم: هي ادعاء أن هناك نسخة ممنوعة عن كتاب مخيف يتحدث عن السحر وتسخير الجن لرغبات الإنسان بنفس الاسم، لإلهاء الناس عن البحث عن الكتاب الأصلي. سيجعلون الحصول على النسخة المزيفة صعبا بمنعه من المكتبات العامة، وسهلا في نفس الوقت، لأنك ستحصل على نسختك، بمجرد سؤال صاحب المكتبة الذي سيدعي أنه مقدم على عمل صعب وسري. سيفاوضك على سعر، الأمر بسهولة وصعوبة الحصول على مخدرات.

ستشيع الهيئة أيضا تاريخا وهميا عن مؤلف الكتاب وأساطير عن قدرة الكتاب على الإتيان بكل شيء، بل سيتم توفير نسخ إلكترونية منه على الإنترنت.

لن تعرف أن الشيء الذي يخيفك ويرهبك وأنت تحصل على نسخة مزيفة، قد تخشى تجريبها أصلا ليس إلا محض خدعة مصممة سلفا. ربما لن تفتح الكتاب، ربما تتخلص منه بروح مؤمن، وتظن أنك اكتفيت بحظك من المغامرة.

هناك قلة ستكون أسوأ حظا، ستضيع عمرها في محاولة تطبيق ما في الكتاب للحصول على ثروة أو فرج امرأة أو على سلطة تافهة وزائلة. من يفعل سيقضي عمره بائسا ومنبوذا ومشوشا، فالأمر كله مجرد خدعة كونية، كاميرا خفية شارك فيها قتلة محترفون يتولون المناصب لحفظ إيقاع الكون.

الكتاب الحقيقي لا علاقة له بالسحر إلا كفصل غائم في كتاب شاسع. كتاب يسطر نفسه بنفسه، ويتسع كل يوم. يدون فيه كل ما كان يجب أن نعرفه ولم نعرفه. الأسرار الكبرى والتفاصيل التائهة التي تحجب عنا بحجة عدم أهليتنا لمعرفة الأسرار أو كي لا تشوشنا التفاصيل.

الوصول إلى النسخة الحقيقية كان صعبا على قربه. عرفت ذلك فيما بعد. الهيئة نفسها لم تعرف أين يختفي هذا الكتاب، فاكتفت بإلهاء الناس عن تتبعه.

كل ما كان علي فعله للوصول إليه، هو الولوج إلى موقع يحمل اسم اللعبة.. شمس المعارف. أن تطلب تسجيل الدخول عبر بريدك الإلكتروني، مقابل أن يمنحوك كلمة سر، أو عبر حسابك على فيس بوك. كانت تلك هي وسيلة الكتاب نفسه كي يجده أحد. اخترع اللعبة بنفسه. سأدرك ذلك متأخرا جدا، بعد أن تمر دورات من شغفي باللعبة وإهمالي لها لسنوات.

ستظل لاعبا عاديا، كآلاف اللاعبين، الذين يبحثون عن المتعة والتسلية ولا يدركون أنهم على أول الطريق للحصول على سر

الأسرار. ستبني مدينة افتراضية وتتحالف مع لاعبين وتحارب بعضهم، ستضيع وقتا لطيفا، وربما تشعر أنك قائد حقيقي. حتى تصل إلى مستوى معين عبر تطوير الأبحاث في أكاديمية المستقبل، أحد خواص اللعبة لتطوير جيشك وقدراتك عبر العلم والسحر.

لا يصل إلى مستويات متقدمة سوى قلة. ثم تتخذ متطلبات التقدم إلى مستويات أبعد مسارات أكثر تعقيدا. أشيع بين المحترفين الذين وصلوا إلى تلك المراحل أن التقدم أكثر هو حيلة من القائمين على اللعبة لاستنزاف الأموال الطائلة من اللاعبين عبر الكريدت كارد. وأن من الحكمة التوقف عند هذا الحد، واستكمال مسارات أخرى في اللعبة، كالتحالفات، الحروب.

أصوات قليلة ومنبوذة قالت: إن من يواصل التقدم، ستتحول حياته إلى جحيم لا نجاة منه أو طريق عودة.

***

اسمي الافتراضي في اللعبة كان سيد الباشا، وسيصبح لاحقا اسمي الفعلي، بل سينسيني اسمي الحقيقي.

حياتي كانت لا شيء متقنا. لكني كنت أعرف بثقة بل ونطاعة أحيانا أني أنتمي رغم التيه إلى شجرة وارفة لشيء أكبر. نبي على قوائم انتظار الوحي. نبي لا يجيد الغناء، الحب، الرسم، الكراهية، لعب الكرة، الكتابة، التيقن، التركيز، المداومة، العزف، الصبر، الألم، العراك، اصطياد البنات، الحديث المشوق.. لكنه يشعر منذ الصغر

أنه مؤهل لشيء ما لم يدر كنهه بعد.

رسبت في كلية التجارة عدة مرات. فشلت في كل المهن السهلة، وتلك التي لا تتطلب موهبة إلا القدرة على فعل شيء ما بآلية. لم أنجح في بيع شيء من علب التونة إلى الأقلام الرصاص. لم تفلح في نجدتي كورسات الفوتوشوب، أو صيانة الموبايل، أو فيديوهات التنمية البشرية على يوتيوب، لم يشعل أي شيء حماسي بعد انتكاسات متتالية، وكدت أؤمن أني ربما كنت كما يراني والدي: فاشلا بالفطرة.

لعبة شمس المعارف كانت نجدتي الحقيقية، الشيء القادر رغم رتابته على إشعال حماسي وإشعاري أني قادر على التفوق في شيء ما، خاصة بعد أن ظهرت براعتي في اللعبة بين آلاف اللاعبين.

كانت اللعبة هي بيتي الحقيقي. كلمة سر وبريد إلكتروني كافيان لامتلاك العالم. أصادق لاعبين من جنسيات مختلفة يحترمون تفوقي في اللعبة. كنت أجيد فيها كل شيء وأنجزه ببراعة أو بفشل يعقبه نجاح. ألعاب كتلك تمنحك طريقة للتعلم دون عقاب حقيقي.

***

اللعبة بسيطة في بدايتها. جزر بلا عدد وثلاثة عوالم متوازية. تختار جزيرة، تنشئ دارا للبلدية لإدارة الحكم، ثم مخزن للموارد، ثم تقوم بتعلية سور المدينة وتقويته، وثكنة للجيش وميناء حربي

وتجاري. تتشارك غابة ومنجم مع اللاعبين على الجزيرة التي بنيت عليها مستعمرتك، وتتبرعون بالموارد إلى الغابة والمنجم لرفع مستويات إنتاجهما.

قدرتي الاستثنائية في اللعبة، كانت في الشغف والصبر. أقضي أياما متواصلة في لعبها. لا يفصلني عنها سوى الأشياء التي لا يمكن المساومة عليها في الحياة: كالحاجة إلى النوم، الأكل، قضاء الحاجة، الاستمناء، ادعاء البحث عن عمل والفشل في العثور عليه، تدخين الشيشة على مقهى سعد الحسيني الشهير بمقهى الآلاتية.

حدسي قادني إلى أن الفارق بين الناجحين والفشلة في اللعبة، هو الاهتمام بأكاديمية المستقبل في المراحل الأولى من اللعبة. لذا كنت أوليها اهتماما خاصة. كانت الأكاديمية معنية بتطوير الأسلحة والناتج من المناجم، عبر باحثين يمنحونك القوة. تستطيع أن تحصل في جيشك مثلا على رماة يطلقون أسهما نارية بدلا من أسهم خشبية. وعلى منجنيق وهاون متطور بدلا من الكواسر الضعيفة لتحطيم الحصون والأسوار.

ثلاث سنوات ممتعة قضيتها في البناء والغارات وعقد التحالفات والتجارة والهزيمة والانتصار.

لم أفكر يوم في معنى كلمة شمس المعارف وسبب اختيارهم لاسم كهذا في لعبة حربية في الأساس، حتى إن النسخ المتعددة بلغات مختلفة، كانت تحمل نفس الاسم، بنفس منطوقها بالعربية لا ترجمتها.

عرفت كثيرين ملوا اللعبة التي يرتكز سرها على الصبر والمراكمة. هؤلاء هجروا مستعمراتهم بمواردها من كبريت وحديد وبلّور وعنب لصنع الخمر. من هؤلاء، الذين يتركون الطريق في منتصفه، صنعت مجدي.

بعد ثلاث سنوات، لم يعد أمامي أي مساحة للتقدم سوى الخوض في الجزء الذي أشاع المحترفون أنه محض خدعة أو لعنة. الجزء الخاص بأكاديمية المستقبل، ما بعد الوصول إلى مستويات متقدمة فيه، الولوج إلى الاحتمالات الغامضة واللانهائي.

كل بند في الأبحاث، كان يشرح إمكانياته. سيكون عليك أن تحقق تلك البنود عبر نقاط تتسارع حسب عدد العلماء/الباحثين/ السحرة المعينين. كنت أشعر أن علي ولوج هذا الباب، لم يكن لدي شيء لأخسره، فخارج اللعبة لا حياة لي ولا مستقبل. ربما يكفل الولوج عبر المستويات الصعبة عالما جديدا، يجعلني متفوقا أصليا ونادرا في اللعبة التي لا تنتهي إلا عبر قضاء الجميع على الجميع وهو أمر مستحيل الحدوث، نتيجة تكوين تحالفات قوية تضمن بقاء الوضع على ما هو عليه. كانت تلك التحالفات القوية التي اضطررت للانضمام تحت لواء أحدها هي أكثر ما أكرهه في اللعبة، لأنها تضع حدود الخيال والإمكانيات عند سياسات يرسمها قادتها.

جمعت النقاط المطلوبة خلال ثلاث سنوات. عينت أكبر قدر ممكن من الباحثين. لم أترك فرصة لغزو مستعمرة إلا وفعلتها. لكن لم ينفتح لي الباب الغامض لأبحاث المستقبل. كان رأي اللاعبين

الكبار أني محض أحمق يسعى للوقوع بمحض إرادته في الفخ لاشتراء الأمبروزيا -عملة شمس المعارف- بمبالغ طائلة لم أكن لأمتلكها. المغفلون فقط هم من يشترون الأمبروزيا في اللعبة. قالوا إنه لا وجود أصلا لهذا الباب.

لم أكن قد فكرت أصلا في اشتراء عملة شمس المعارف، التي تسهل الأمور وتختصر مدة البناء، ولا يحتاج مالكها إلى ثلاث سنوات لبناء عالمه بقدرتها على مضاعفة الموارد.

الحصول على الأمبروزيا يتم عبر عدة طرق: اشتراؤها عبر رسائل موبايل قصيرة، أو الحساب البنكي، أو بالطريقة الصعبة: الاستيلاء على خزائن الآخرين الذين اشتروها ولم ينفقوها بعد، وهو أمر نادر الحدوث.

كنت أملك الملايين من عملة الذهب في خزانتي باللعبة. كان أمرا مثيرا للإحباط أن كل هذه الثروة من الذهب لا تشتري علبة ثقاب خارج لعبة شمس المعارف، سحقا لعالم لا يعترف بتفوقي.

المثير للإحباط أكثر أن مليارات من عملة الذهب في اللعبة لا تستطيع اشتراء أمبروزيا واحدة، كانت هي أيضا تحتاج إلى مال حقيقي.

الجانب الجيد أن عدم حصولي على العملة عبر الاشتراء ، كان علامة انتصار، التفوق كرجل عصامي. كان اشتراء الأمبروزيا عارا على صاحبها. أشعنا أن من يفعلون ذلك لبناء ممالكهم محض غشاشين، مرفهين، مدللين من أمهاتهم، وكنا نتحالف ضدهم بسهولة لإسقاطهم، كان هذا الجدار الأخلاقي الذي صنعناه بالتواطؤ يحمي

اللعبة. رغم أن الحصول على مكسب من وراء المغفلين كان الهدف النهائي لصناعها كما ظننا ، أما نحن، من بنوا أمجادهم وأساطيلهم الحربية دون أن يدفعوا مليما، فنحن الأبطال الحقيقيون.

***

بعد ثلاث سنوات، كدت أغلق ملف أبحاث المستقبل، بعد صعوبة الحصول على أمبروزيا دون مال حقيقي.. ثم حدث شيء، لا بل شيئان. الأول أني كسبت أمبروزيا، والثاني هو انكشاف أن مقهى سعد الحسيني الشهير بمقهى الآلاتية الذي أدخن عليه الشيشة، لم يكن مجرد مقهى، بل واجهة تخفي سرا أكبر.

حدث كل شيء بالصدفة، أضعف الحجج وأقواها. جلست على مقهى سعد الحسيني في يوم يشبه كل الأيام التي أتسلى فيها بتدخين الشيشة ومراقبة الكائنات التي فشلت في حياتها وأستلهم منها العزاء، دون أن أكلم أحدا ودون أن أسمح لأحد بأن يكلمني.

الأيام الطويلة والمتكررة، هي ما جعلتني ألاحظ أن شيئا غامضا يدور في ذلك المقهى. تطفلي وعدم قدرتي على مؤازرة هذا التطفل بالتواصل الاجتماعي الجيد جعلني مكروها من قبل سعد الحسيني صاحب المقهى. تفاقم هذا الشعور نتيجة علاقتي بالقطط السبع التي يربيها في المقهى.

لا أكن كراهية للقطط، لكني أخشى قدرتها على اقتحام عزلتي بجرأتها، طلبها للشيء المخيف المدعو بالحنان المجاني مع تحمل

إمكانية الغدر. القطط السبع كن على هذه الدرجة من الجرأة. أربع منهن قطط صغيرة يلعبن كأنهن يقدمن فقرة في سيرك. قطة عجوز تحمل أثرا لعاهرة فاتنة أذلها الزمن فلما كبرت قادت السادس كان قطا سمينا كسولا خمنت أنه الأب. أما الأخير فبدا كعشيق أو بلطجي للقطة العاهرة. أقسم إنه المسؤول الحقيقي عن إنجاب القطط الأربع، لا القط السمين والكسول.

في أول مواجهة مباشرة بيني وبينهن، كانت جرأتهن كبيرة بما يكفي للجلوس على طاولتي وشد طرف بنطالي والشرب من كوب الماء. حاولت هشهن بقسوة، سخر مني الزبائن، وسبني بعضهم. وصوبوا نظراتهم الحارقة نحوي. لم أكن محض قاس بلا قلب لا يرحم القطط، كنت أداري خوفي منهن بقسوة مفتعلة.

عندما طلبت من أحد العاملين أن يطرد القطط من المقهى أو يهشهن بعيدا، رد علي بهدوء واحتقار أنه من الأفضل أن أرحل أنا. علمت أنها رسالة من صاحب المقهى الذي لا تفوت عيناه شيئا، سعد الحسيني.

لكني لم أرحل. تعلمت أن اتجاهل القطط، وأن أعاملها بتحفظ يثبت المسافة اللازم اتخاذها بيني ككائن ينتمي لطبقة أعلى في سلم الحيوانات الكوني وبين قطط ضالة.

بعد عام من الجلوس اليومي على المقهى، كان من السهل علي أن ألاحظ: القطط الأربع الصغيرة لا تكبر أبدا. جلد القطة الأم تبدل للمرة الرابعة بتغير الفصول، من الأسود في الصيف إلى الأبيض في

الخريف، ثم زركشت بقطع سوداء على جلدها الأبيض في الشتاء، بينما بدل جلدها ألوانه بألوان الطيف السبعة في الربيع.

سميت ذلك «الأشياء الغريبة المتعلقة بالقطط». تسمية الأشياء تكنيك مجرب، سيساعدني فيما بعد في عملي كمشاء على تجاهل الملاحظات التي تدفع للتفكير بأن الكون أكبر من الفهم وأقل من النظر. ظننت أن كل رواد المقهى رأوا ما رأيته، ما يجعله في خانة العادية، لكن ذلك لم يكن صحيحا.

***

هكذا حصلت على الأمبروزيا.

رسالة على هاتفي المحمول من إدارة اللعبة لتسهيل الأمور على اللاعبين، ورفعها إلى مستوى جديد من الواقعية، بتنفيذ مهام في الحقيقة.

كانت المهمة الأولى التي طلبت مني جمع عشر أكياس قمامة بعد تفريغها من محتواها، من ثلاث محطات مختلفة، مقابل مكافآة ضخمة، ألف أمبروزيا، سأحصل عليها من أول سوبر ماركت أقابله يحمل راية قرصان. لم أتردد في الموافقة، من أجل أبحاث المستقبل. فعلتها.

كان الأمر على غرابته بسيطا كطرقعة إصبع. على الرغم من تقزز الناس المعلن من غريب الأطوار الذي يعبث في أكياس القمامة للحصول عليها فارغة.

تحمل الرائحة القذرة كان نضالا سهلا في مقابل شيء قد أستطيع أخيرا أن أكسبه. كان ذلك يشبه العمل، المختلف أني أجدته، بل أحببت الأمر. أستطيع أن أفعل هذا كل يوم. بل فكرت في التوسع، يمكنني مبادلة نصف ما أحصل عليه من أمبروزيا بين اللاعبين بسعر أرخص مما تقدمه اللعبة، وتحويلها إلى نقود حقيقية تدخل جيبي، نقود تمكنني من اشتراء أشياء حقيقية بدورها. سأفتح حسابا بنكيا لتحويل الأموال عليه، سأصير ثريا. ملك الأمبروزيا. فكرت في هذا كله حتى والشك يروادني في أن أجد سوبر ماركت يرفع راية قرصان يقبل تسليمي كارتا مشحونا بألف أمبروزيا مقابل أكياس قمامة فارغة.

ضربت المكسب المتوقع في 356 يوما في 10 سنوات، لأحسب متى سأتوقف عن العمل في جمع أكياس القمامة أو المتاجرة بالأمبروزيا، للبدء في الحياة كثري كسول يتأمل سنوات كفاحه بفخر ويبدأ في الاستمتاع بالحياة على شواطئ العراة، أو هكذا ظننت أن هذا ما يفعله الأثرياء المتقاعدون عن العمل.

برز السوبر ماركت حامل راية القرصان كأنه يناديني ويفتح ذراعيه فخورا بما أنجزته. نفس الراية التي أملكها على قلعة القراصنة خاصتي في اللعبة. على الرغم من ذلك، توقفت عند الباب، خائفا ومتشككا مما أقدم عليه. كل شيء بدا عند الباب محض وهم قد يدفعني للإحراج والاتهام بالجنون.

لم تنفعني ذكرى تبديل عصيان الآيس كريم صغيرا وفق عدد

النجوم عليها. ذات مرة كسبت خمس نجوم وبدلتها بخمس قطع آيس كريم، منحتها كلها لأصدقائي في الشارع بفخر. هذا أمر لم يكتب إلا لمحظوظ مختار. كانت تلك اللحظة واحدة من لحظات السعادة والأمل القليلة في حياتي. لكنها كانت باعثا على الأسى كذلك، مع كل إحباط وفشل أمر به ومع نجاح أصدقائي الذين لم يحصلوا على النجوم الخمس.

لم أفهم قط كيف التزموا بقانون اللعبة، فنجحوا في الحصول على وظيفة جيدة وسيارة وامرأة جميلة، ثم غلفوا ذلك بتدين ظاهري ظنوا أنه لا يعيق الحياة ويضمن الآخرة بأقل مجهود ممكن. كنت أرى أنهم لا يملكون شيئا خارقا سوى القدرة على الامتثال للقانون، فيما لم أكن أي شغف في قلبي إلا للعب والكسل.

لم أر شيئا مميزا في الاستماع إلى كورسات التنمية البشرية، التعليم الجيد الذي يدفع السفينة ويوفر أجرة الريح، البكاء مع داعية زائف يقطع تباكيه ليتلصص على أثر ابتزازه لجمهوره.

أعرفهم كما أعرف كفي، لم يكونوا أكثر فشلا مني. لم يملكوا شيئا مميزا.

عندما كنت أقابلهم صدفة. كنت أرى الإشفاق في أعينهم. إشفاقا يمنعهم من استقبال احتقاري لهم. كانوا سيصدمون حقا لو علموا أني حتى وقتها، لم أكن لهم الحسد بل الازدراء. سيعتبرونها صفاقة. لن يعرفوا أن فشلي وكسلي وميلي للعب الذي كان محض انتظار لشيء ثمين، شيء يستحق. سأظن بتعاوني مع هيئة الأمن القومي

للكوكب، فيما بعد، أني حصلت عليه، تماما كما تظن أنت بحصولك على النسخة المزيفة من كتاب شمس المعارف، أنك حصلت على شيء ثمين.

مع الوقت سأدهَش من كم الامتثال الذي سأمنحه للهيئة. سأصبح حارسها وعينها التي لا تخطئ في اصطياد المخالفين. لقد هُزمت في اللحظة ذاتها التي ظننت فيها أني انتصرت على الناجحين عديمي المواهب، المتعلقين بنماذج نجاح فرضتها هيئة الأمن القومي للكوكب، لعجز خيالهم عن إدراك غيرها. عندما أقابلهم وأنا مشاء ناجح ستتغير نظرتي: لست مجرد ناجح آخر مثلكم، بل أنا ضابط إيقاع هذا النجاح، بل بإمكاني نسف نجاحكم المزيف إن أردت.

لَنْ أدرك هذا كله في حينه، سيحتاج هذا الإدراك إلى رحلة كاملة من الألم.

عند باب السوبر ماركت، حسمت ترددي ودخلت.

لم يمنحني البائع فرصة لأشرح له. ما أن رأى أكياس القمامة الفارغة في يدي، حتى مد يده لاستلامها وأعطاني ورقة لتوقيعها. طلب مني بياناتي، البطاقة، البريد الإلكتروني، رقم الهاتف، إحداثيات جزيرتي في اللعبة. أدخل المعلومات على جهاز كمبيوتر أمامه، ثم قال لي مبتسما: مبروك.. ألف أمبروزيا الآن على حسابك في اللعبة .. احرص على استخدامها جيدا.

قبل أن أخرج من السوبر ماركت، وصلتني رسالة على هاتفي

المحمول: تهانينا.. لقد اجتزت المهمة الأولى بنجاح.. انتظر المهمة الثانية غدا.

كنت سعيدا وبائسا.. روحا متوهجة ورائحة قذرة.

***

لم أتوجه مباشرة إلى المنزل لألعب. قررت الاحتفال قبل أن أزيل رائحة الإنجاز من جسدي. لم أجد أرخص من مقهى سعد الحسيني، فتوجهت إليه ورأسي منتفخ بأرقام التجارة الرابحة. توهج الروح انقلب إلى حزن عامر، لم أدر سببه. ربما لأني لم أعتد الانتصار بعد.

عندما دلفت إلى المقهى، لم يلتفت أحد إلى كوني مختلفا ومنتصرا إلا القطط السبع، التي تجاهلت باقي قطيع الفاشلين والآلاتية الذين اعتادوا جعل ذلك المقهى مكان لقاء لهم قبل وبعد تأدية نمرهم في الكباريهات والأفراح، أو لإزجاء الوقت واسترجاع الأمجاد الغائبة في حالة ما إذا كانوا عواطلية لم يعودوا مطلوبين، أغلبهم مونولوجستات دهسهم تقلب مزاج الإنسان.

القطط لم تحاول تلك المرة إغاظتي باللعب معي عنوة أو بالإصرار على الجلوس على طاولتي وشرب مائي. بل توقفوا عن نشاطهم المعتاد، وتراصت أمامي من بعيد بنظرات سبع في عين كل قطة: الفرح، الشفقة، التعاطف، الحزن، الاحتقار، الفخر، اللامبالاة.. كأنها مصائر سبعة تنتظرني.

طلبت حجر الشيشة. بعد عدة أنفاس أدركت شيئا، لا.. بل شيئين.

كأنها الرؤيا. وحي تنزل على نبي، نبي فاشل. ضحكت من الفكرة لكن ذلك لم يمنع تنزل الرؤيا: هذا الحجر مغموس بمخدر ما، وإن ذلك خطأ غير مقصود، تلك الخدمة لم تقدم لي من قبل، بل للزبائن المخصوصين، المعروفين بعلامة يدركها فقط سعد الحسيني.

بعد عدة أنفاس رأيت شبكة المدينة أمام عيني. المقاهي المعتمدة لتوزيع الحجر الذي يدعى حجر الصفاء.

نظرت إلى سعد الحسيني، أنا أفهم أيها الوغد الذي تجاهلني كثيرا. سعد عنف الصبي الذي بدل حجري العادي بالحجر المخصوص. لست وحدك يا سعد، أنت واحد من المنتمين لشيء ما، شيء ممتد كشجرة وارفة.

كل منطقة في مصر، بها رجل مثل سعد الحسيني، يمرر أحجار شيشة مغموسة بدقة بالأفيون. النسبة التي لا تجعلك مسطولا، ولا تجعله تاجرا. فقط تجعل عقلك صافيا، تغسل الروح.

لم يكن الأمر باختيار سعد الحسيني. بل وقع عليه الاختيار ليمثل السعادة في هذا الشارع، من الرابطة السرية، رابطة حجر الصفاء، التي تضم أصحاب المقاهي المختارين لتمرير الأفيون، والتي تتبع بدورها شيئا أكبر، لم تكشفه لي الرؤيا بعد، لكني على يقين بوجوده.

سأحصل على حجر الصفاء عدة مرات فيما بعد، لأدرك أن الرؤيا من أثر الحجر وما حصلت عليه من هبات، لم يكن ليقارن بما يحصل عليه الزبائن الآخرون. لم يكشف لهم ما كشف لي.

لم يكن أي زبون يحظى بحجر الصفاء. الزبائن أيضا مختارون، لتذوق هذا الأفيون المسحور والاستثنائي والقادم من مزارع غامضة. سعد كان يميز الزبائن بإشارات يتحكم بها الكيان الأعلى لرابطة الصفاء. أرنبة أنف المختار تحمر قليلا، اهتزازات صغيرة بحلمة الأذن، ثلاث نقرات لاإرادية على الطاولة، كل خمس دقائق.

لم أعط الإشارة في أي مرة. لم يرني سعد الحسيني إلا كفاشل تقليدي يكره القطط، بمشاريب ثابتة، وبطقوس لا تتغير، كوب قهوة، شاي، ثلاثة أحجار. ما أستطيع سرقته من أمي.

لكن الخطأ حدث من الصبي الذي وظفه بعد إلحاح عضو كبير في رابطة حجر الصفاء. كان يلعن نفسه لأنه لم يرفض. فالصبي الذي بدا عليه الغباء والكسل لا يصلح لحمل سر. لكني أدركت ما فات على سعد الحسيني. كان الخطأ مقصودا تماما. هذا الصبي عين هنا، كي يمنحني حجر الصفاء. . سعد كان يفكر في أن عقابه لن يكون هينا. إلا إذا اعتبرنا الخصي في طقس احتفالي ثم أن يأكل المعاقب خصيتيه بعد أن يشويهما بيديه عقابا هينا. ابتسمت وهو يتحسس خصيتيه في رعب متذكرا مشاركته في تطبيق العقاب بمتعة وإخلاص على اثنين ارتكبا أخطاء شبيهة، قائلا عبارته التي اشتهرت آنذاك: «ليس بعد هتك السر ذنب»، كما أخبرتني الرؤيا.. ضحكت بصوت عال. كنت أعرف أنهم لن يعاقبوه على الأرجح. هذا الخطأ مهندَس تماما.

لم أطلب حجرا آخر. بمجرد انتهاء الحجر الأول قررت أن أغادر، منتشيا بحصيلة اليوم، ألقيت التحية القطط بمودة للمرة الأولى. خيل لي أني تلقيت منهم ما يشبه تحية مقدسة. أنا على وشك اكتشاف سرهم أشعر بهذا. لقد شاركت تلك القطط في هندسة الخطأ.

***

فتحت حسابي على شمس المعارف. ما زالت أبخرة الأفيون اللطيفة تتراقص في دماغي. خفتت قدرتي على الكشف كنبي. على يمين الشاشة سُجل ما أملك: 1000 أمبروزيا. كنت أظن أني خططت جيدا لإنفاقها. طار الدفء من قلبي، وحل محله الارتباك. لم أعد على يقين بشأن بيعها بالتجزئة للاعبين وتكوين ثروة. ربما كان علي أن أنفقها كما آمنت في البداية بثقة ورعونة على أبحاث المستقبل. لكن المستوى الذي علي اختراقه الآن يتطلب مليوني أمبروزيا على الأقل، ستعقبها مستويات أخرى بملايين أكثر. ثروتي لا محل لها من الإعراب في ظل هذا الارتباك.

ذهبت للاستحمام للتخلص من رائحة الإنجاز الذي صنعته البوم عبر جمع أكياس القمامة. فكرت أن ذلك أيضا قد يجعلني أكثر هدوءًا وقدرة على اتخاذ القرار بمسار الثروة.

أعلم سوء ما أنا مقبل عليه، وجماله: اختيار فتاة للاستمناء. لا أختار واحدة، بل غابة من الفتيات يتأرجحن على قضيبي تحت الدش الطيب.

وأنا أمارس أحلامي تحت المياه، جاءتني الرؤيا الثانية. رأيتها محمولة في فضاء الحمام. جاءت على يد طيف عرفت فيما بعد ان اسمه: سليزي، رسول فري لانس، يتمثل الأشكال ولا شكل له. جاء متمثلا في حلة صوفي. سأعرف عنه تفصيليا عندما أصل بالصدفة إلى كتاب ماندورلا في أثناء رحلتي إلى كتاب شمس المعارف. ماندورلا[1] الكتاب المقدس الذي يروي سيرة أنبياء فشلة،

١- ماندورلا..الكتاب المقدس للمشائين الذي وضعته هيئة الاستعلامات للأمن القومي للكوكب من لجنة تألفت من عدة رواة، ويحكي عن سيرة الأب عبد الجبار والأم ريهام «الماما» والابن شاهر «جو».. الأنبياء الفشلة، الذين أخفقوا في أن تصبح رسالتهم حقيقة واقعة وفشلت في إيجاد مؤمنين وانتهت بانهيار عالمهم، ظلت النسخ المطبوعة سرية، تتداول بين المشائين الذين يتوقع لهم مستقبل باهر ليتخذوا العظة من الفشل وليتجدد إيمانهم وعزيمتهم بالأمل الذي يطرحه الكتاب في النهاية، عن تجدد اللعبة، بظهور «شخص لا يجيد الغناء، الحب، الرسم، الكراهية، لعب الكرة، الكتابة، التيقن، التركيز، المداومة، العزف، الصبر، الألم، العراك، اصطياد البنات، الحديث المشوق»، سيظن كل مشاء أنه المقصود بتلك العبارات، وسيتجاهل امتلاكه لصفة أو اثنتين على الأقل لا يملكها النبي المنتظر، وسيعمل على محوها ليمتلك الهمة للمشي.
هيئة الأمن القومي للكوكب، خشيت من تسرب النسخة إلى من لا يستحق، فلجأت إلى حيلة معقدة، بطرحها على الجميع كرواية، وضعت عليها اسم مؤلف:أحمد الفخراني وافق على العرض مقابل الحفاظ على وظيفة تكفل له أجرا ثابتا، تلك الحيلة ستلجأ إليها الهيئة عدة مرات، ومنها كتاب شمس المعارف الكبرى الذي يطرح في الأسواق بوصفه كتاب سحر لتضليل الباحثين عنه، حتى إنهم ألفوا له محتوى يستطيع تحضير الجان، بينما محتوى الكتاب الحقيقي الذي تعتبره الهيئة خطرا على منجزاتها لم يعرفه أحد حتى الآن.

سأعرف من الكتاب أني ذكرت فيه كنبي جديد، نبي فاشل، له البشارة والعهد.

كانت كلمات الطيف مشوشة. تأتيني داخل فقاعات ملونة تنكسر على قضيبي المنتصب، رتبتها في ذهني هكذا:

«المتع جميلة، إذا ما وصلت إلى الحافة، طريقها كطريق النور، لماذا قدمت المتعة على أنها عكس الطريق إلى الله، الطريق إلى الله يحفل بالمكابدة بوجع الجسد من أجل الروح، الطريق إلى المتعة يحفل أيضا بالمكابدة بوجع الروح من أجل الجسد، تظن وأنت في الطريق أنك وصلت إلى الله أو وصلت إلى المتعة بينما الحقيقة أن الأمر ليس كذلك، الوجع علامة مشي لا وصول، عند نقطة ما تتساوى لذة الجسد والروح، هنا يبدأ الطريق».

تلك الكلمات التي اكتشفت عاديتها، كانت تمثل لي كشفا وقتها، كشفا ساعدني على قذف أمتع، بضمير أقل ثقلا.

سليزي الذي لم يكن يقصد أن يرشدني إلى أي شيء، قدر ما كان يرغب في حضور درامي، اختفى.

اتخذت قراري، لن أبيع الأمبروزيا بمال قارون. على الأقل سأنتظر اتصالهم بي في مهمات أخرى، لأجمع القدر الكافي للعبور نحو أبحاث المستقبل.

***

انتظرت عدة أيام بلا جدوى. لم تصلني المهة الثانية.

سعد الحسيني حرص خلال تلك الأيام على تقديم حجر الشيشة لي بنفسه، كي يضمن ألا يتسلل إليّ حجر الصفاء، كنت أستشعر خوفه مني. لم يعاقب إذن. كنت على استعداد للتوسل إليه من أجل نفَس من حجر الصفاء، مفتقدا القدرة على الكشف.

داعبت القطط للمرة الأولى، لم أعد أخشاها، كنت أنتظر شيئا منها.

كنت مكتئبا بحق. جمعت أكياس قمامة من نفسي وذهبت بها إلى السوبر ماركت الذي يحمل راية قرصان. الراية اختفت. دخلت لنفس البائع بالأكياس. نظر لي مندهشا كأنه لم يرني من قبل، ولم يبادلني إياها بالأمبروزيا. بدوت كمتسول يائس للدرجة التي جعلتني أرفض إنكاره، وأطالبه بعصبية أن يسجل لي المزيد من الأمبروزيا في حسابي. ثبت على دهشته. قمت بسبه. طردت من السوبرماركت ركلا.

بكيت طيلة طريق العودة إلى الدرجة التي نالني معها حظ من صفاء الذهن. مواقف الإهانة قد تكون خادعة أحيانا في اتخاذ القرارات بأن تتعامل مع حياتك بجدية وأن تعدل من مسارك. حتى إنني قررت ترك لعبة شمس المعارف نهائيا، الأمر الوحيد الذي أبرع فيه، والمحاولة من جديد في بيع أمواس الحلاقة وعلب التونة ومعطرات الحمامات، وتحمل الفشل في بيعها. الفشل والمحاولة ثم الفشل من جديد قد يكون إزجاء جيدا للوقت.

لكـن تلـك القـرارت فقـدت جديتهـا مـع الوقـت، واسـتعدت بسرعة تـون انتظـاري للنبـوة.

في مقهى سعد الحسيني جاءت الإشارة.

القطـط تراصصـن أمامـي مـرة أخـرى. لم أهشـهن. كـن ينظـرن إلى عينـي بثبات، ثـم تحلقـن حـولي في دائـرة بحركـة ظلـت تتسـارع حتى تحولـت إلى إعصـار صغـير، ابتلعنـي. إعصـار رآه الفاشـلون عـلى مقهى الآلاتيـة، ثـم واصلـوا رمـي القواشـيط وتدخـين الشيشـة، كأن شـيئا غير اعتيـادي قـد حـدث.

هـذا الحـدث، سـيصبح نقطـة بـارزة في سـيرتي الذاتية، التي سـتتضخم منـذ تلـك اللحظـة بحكايـات النجاح.

صرت أرى رويـدا رويـدا. تلـك القطط مقدسـة. أرواح سـبعة مقدسـة. أسـلاف لمشـائين عظـام. ذلـك المقهـى البائـس في حـي العشريـن الكئيب بفيصـل يقـع تحتـه مركـز الأرض وغرفـة عملياتـه السرية.

القطـط السـبع، هـن حـراس مركـز الأرض. خصـص المقهـى للآلاتيـة كي يسـهل تمييـز الغربـاء، لم يعـرف الآلاتيـة الـسر، لكنهـم احترمـوا قطط المقهـى بالفطـرة. دورهـم محـدد حتـى لـو لم يعـوه: احمـوا المقهى مـن الغربـاء بتجاهلهـم لتمييزهـم.

في الإعصـار الـذي لفنـي، تسـللت أرواح القطـط السـبعة إلى روحي؛ لا لتقيـم، بـل لأرى. كنـت أتلقفهـا واحـدة تلـو الأخـرى. لم أعـان من دخـول الأرواح إلى روحـي. الأمـر أسـهل مـما قـد تظـن. فقـط الرُغْطة كتعبـير وحيـد للجسـد عـن اعتراضـه.

في الإعصار ابتلعت كل شيء. ذكرياتي، حاضري، أجندة خطتي السرية للحياة التافهة، طباشير ملونة، أثداء، دخان بعدد أنفاس أحجار الشيشة، امتحانات فشلت في عبورها، ألعابي الصغيرة، أغلفة الحلوى التي لم تربح في المسابقات. كل ما عبر في حياتي، كان هنا الآن، كسبيكة غليظة تتفكك وتذوب.

في تلك اللحظة رأيت. عرفت أين تكمن موهبتي، ولأي شيء تم اختياري. الشيء الذي ظننت طيلة عمري أنه شيء تافه. أرنبة أنفي التي تسخن وقضيبي الذي ينتصب انتصابا قويا كلما رأيت رجلا أو امرأة من غريبي الأطوار. كان قضيبي يحركني في اتجاههم. ذلك الأمر تجاهلته طيلة عمري. لم أصنفه كموهبة، ولم أعرف فائدته.

رأيت الطريق صافيا، وعرفت لمَ اخترت ولأي شيء سأعيش. أكياس القمامة كانت مجرد اختبار، للتأكد من أن إرادتي المتمردة قد تعبت، وأنها على استعداد للامتثال لسيد خفي.

المطلوب مني كان بسيطا: المشاركة في إنقاذ العالم من غريبي الأطوار.

انتهى الإعصار. وجدت نفسي جالسا على المقهى والقطط تلهو بعيدا.

جاءني سعد الحسيني مبتسما في وجهي للمرة الأولى منذ عرفت الطريق إلى المقهى. رص الحجر بسعادة، شد نفسين، ثم ناولني الليّ قائلا: تلك المرة حجر صفاء حقيقي.. فرز أول.. شد وادعيلي.

غصت داخل نفسي المطمئنة. أدركت أن المهمة التالية لن ترسل على هاتفي المحمول، بل علي اكتشافها بنفسي.

عادت القطط للاصطفاف حولي مرة أخرى. أدركت الآن أن لها حركتين. واحدة للعامة وأخرى لا يراها سوى المصطفين من أمثالي، شكلوا فرقة تغني وتعزف لفريق The cat empire

أغنية: The wine song

run run run run run run run run run run

let's have some fun fun fun fun fun fun fun

ستظل تلك الأغنية، أغنيتي الخاصة لفترات طويلة، أشبه بكود خاص. ما أن أسمعها حتى تهدأ فورات إحباطي وكسلي ورغباتي الشاذة في الخروج عن طاعة هؤلاء في الأعالي.

*****

حكاية الرجل الذي لا يتوقف عن الكلام والكتاب العجيب

عرفت أن المهمة الثانية كانت هي القدرة على الصبر حتى أعرف المهمة الثالثة. ثلاثة أشهر مملة. مررت بدورات الشك والإحباط لكني كنت أنتهي إلى اليقين مرة أخرى.

بعد ثلاثة أشهر وصلتني رسالة على هاتفي المحمول: مبروك لديك الآن ألفا أمبروزيا إضافية على حسابك.. المهمة الثالثة في انتظارك.

كنت في طريقي إلى مقهى سعد الحسيني عندما سخنت أرنبة أنفي، ثم انتصب قضيبي انتصابا خفيفا. كانت البوصلة تشير إلى الاتجاه. ثمة صيد قريب، أول صيد في حياتي. قلبي يدق بقوة، أنا ملك الأدرينالين في العالم، سلطان أهل الهوى.

أشار طربوشي إلى شارع متسع. عبرت منه إلى ثقب إبرة. ومن ثقب إبرة إلى شارع متسع. من الشارع المتسع إلى شارع ضيق انتهى إلى حائط سد.

مواقف كتلك ستعلمني كيف أثق بهبتي، حتى لو انتهى الأمر إلى حائط سد. انتصابي ازداد بقوة. الشهوة شملت بدني. أرغب في مضاجعة صيدي، أيا كان جنسه: رجل، امرأة، شجرة، حائط، ثقب إبرة.

انتبهت إلى الجملة المكتوبة على الحائط: الله يرحمك يا فاروق يا علي.

قضيبي دار بي بقوة، كراقص تنورة. ثم بدأت الأمور تتضح. تلك العبارة منتشرة على حوائط عديدة وجدران بيوت ومحلات. ارتباك الخط وطفولته يؤكدان أن شخصا واحدا مسؤول عن انتشار

العبارة على الجدران.

بكاميرا الموبايل السيئة، سألتقط عدة صور للعبارة المنتشرة. في المرة القادمة سأحمل كراسة لتدوين الملاحظات. ربما علي أن أسمح لبعض الأمبروزيا بالإفلات لاشتراء أدوات ككاميرا جيدة، لتطوير مهنتي الجديدة، التي تشعرني للمرة الأولى أني حي في الواقع بقوة الشغف التي تدب في روحي بعيدا عن لعبة افتراضية على الإنترنت. ربما أحتاج إلى مسجل صغير أيضا.

لم أكن أعرف لمَ علي أن أتبع كاتب العبارة، لكن كشف الأنبياء جاء: شخص تافه، يهين الخلود، يرغب في تذكير الناس برجل تافه وميت مثله، وأن يضمه إلى قائمة الخلود بغير حق.

قوائم الخلود ظلت حكرا على العظماء فقط. ما يحدث هنا إهانة كبرى في حق الأسلاف، خلل آخر في هندسة الكون، وما خطه المشاؤون العظام من قوانين. أنا مشاء وعلي أن أحافظ على سير أسلافي. طريقي الوظيفي للترقي: أن أصير مشاء عظيما، حتى أترقى إلى لقب المشاء الأعظم.

لقب المشاء الأعظم لا يحصل عليه سوى قلة مصطفاة، حينها لا يموتون ولا يحيون تماما كديزني، يصيرون جزءا ذائبا في الكون، ويتحكمون في مصيره إلى ما لا نهاية، يعرفون طريقهم إلى الخلود الذي يهينه التافه الذي يترحم على فاروق علي.

تتبعت قضيبي مرة أخرى. من ثقب إبرة إلى شارع متسع ومن شارع متسع إلى ثقب إبرة. حتى وصلت إلى مخزن مهجور.

كان المخزن مليئا بصناديق بيرة، وكميات كبيرة من الزجاجات الفارغة كانت مبعثرة في المكان. خبطة فأر، تزامنت مع تعثر قدمي في إحدى الزجاجات الفارغة. أخاف الفئران. الفأر تحول إلى جرادة أخبرتني أني في المكان الصحيح. فيما بعد ستظهر تلك الجرادة كواحدة من أسرار موهبتي التي سأعرف أنها لم تمنح لكل المشائين، لتؤكد لي صحة مساري، تزرع الإيمان بالحدس وبقضيبي، وتقيني فيروس الشك.

رأيت صيدي. رجل خمسيني مكوم ونائم في أحد أركان المخزن، في يده زجاجة بيرة. بدا كمن يشرب بلا انقطاع. ملابس متسخة مكومة لها لحية بائسة. بقايا وجبة كباب وكفتة، ثمة شيء يمكن لأي شخص أن يلاحظه: هذا رجل ميت ذهب إلى الموت باختياره.

كنت أمام الرجل النائم مباشرة، عندما أفزعتني اليد التي تشبثت بقدمي فجأة، كميت يبعث من الحياة، صرخت. لم أهدأ عندما ضحك الرجل، كاشفا عن أسنانه الخربة، المصبوغة بقذارة بنية اللون، بل زادتني رعبا.

كنت مرتبكا جدا، وفي يدي كاميرا الموبايل السيئة التي كانت تحاول تصويره. سألني ببلاهة وغضب: أأنت من الصحافة؟ انتظرت عامين كي يلتفت إلي أحدكم؟

راقت لي الفكرة، التي ستختمر مع الوقت، صحفي!

تلك المهنة قد تبدو غطاء ملائما لمهمتي المقدسة، ستتيح لي طرح الأسئلة والاقتراب أكثر والتطفل بأقل قدر من الإهانات. سأظنها فكرة عبقرية وتأكيدا لتفردي معتقدا أنها لم تخطر على بال أي مشاء

مـن قبـل. كنـت صغـيرا ومغـرورا. سـأعرف أن الصحافـة هـي الخدعـة الأقـدم لـدى مشـائي الـشرق الأوسـط لتغطيـة عملهـم، حتـى إنهـم جعلوا منهـا مهنـة مـن لا مهنـة لـه. فيـما بعـد سأكتشـف كل أسـبوع عـلى الأقل صحفيا يسـتعمل المهنـة كسـتار، بـل سـأبلغ عـن متمردين بينهم.

لم أفلـت حبـل الإنقـاذ وأجبتـه: نعـم أعمـل بالصحافـة. في الحقيقـة مـا زالـت تحـت التمريـن، هـذا موضوعـي الأول.

دبـت الحماسـة في عيونـه المطفـأة مـن أثـر البـيرة، واعتـدل جسـده الميـت قائـلا: سـأمنحك موضوعـا يثبتـك في الصحافـة، سـيمهد لـك الطريـق لتصبـح رئيـس تحريـر. قصـة حيـاتي.

صمـت نصـف دقيقـة قبـل أن يتابـع: سـأموت. والنـاس كـما تعلـم، أولاد كلـب بالفطـرة. تبخـرت مـن ذاكرتهـم حيـا، وسـأتبخر منهـا ميتـا. أردت فقـط أن يتذكرونني. اختفيـت هنـا في المخـزن. اسـتبدلت معـاشي، وبواسـطته دفعـت إيجـار المخـزن وأكـوام البـيرة. رأيـت ذلـك في فيلـم الحـب في طابـا. عندمـا قـرر نجـاح الموجـي أن ينتظـر المـوت بعـد إصابتـه بالإيـدز، ثمنـا لليلـة جميلـة مـع فتـاة مثـيرة.

سألته جازعا: هل أنت مصاب بالإيدز؟

هـز رأسـه بالنفـي: لا.. لكـن قبـل عـشر سـنوات مـن بلوغـي السـتين، سـن المعـاش، أصبـت بـداء عجيـب. سـأروي لـك كل شيء.

***

قص علي الرجل قصته. يمكن أن نسميها على غرار ألف ليلة حكاية الرجل الذي لا يتوقف عن الكلام والكتاب العجيب الذي أجبره على الصمت:

(لم أعرف متى أصبت بشهوة الكلام. الشهوة التي سعرن الجحيم من حولي. فبسببها أجبرتني المحكمة على خلع زوجتي. هرب أولادي إلى بلاد بعيدة. لفظني أصدقائي. أجبرني مديري على استبدال معاشي قبل استحقاقه بعشر سنوات.

أنا لم أكن متكلما ولا صموتا كنت مثل الآخرين تماما: أنم عند النميمة، أصمت عندما يكلفني الكلام ثمنا ما، أواسي في العزاءات مدعيا الحزن، لا أفوت «يرحمكم الله» ولا «يهديكم ويصلح بالكم»، أهنئ في الأفراح، أتحدث منافقا ومتملقا في المواضع التي تستوجب ذلك، أسب الدين عند الغضب.

لكن كل شيء تغير في لحظة. لم أعد قادرا على التوقف عن الكلام أكثر من عشرين ثانية، وصلت بالتمرين إلى نصف دقيقة. كنت كمن يحاول حبس أنفاسه تحت الماء. ·

أحاول أن أتذكر اليوم الذي أصابتني فيه شهوة الكلام. كان يوما عاديا مؤهلا للمرور بسلام كسائر أيامي. أنهي عملي في الثانية ظهرا، كما تعودت منذ أول يوم لي في الوظيفة.

أتساءل فقط إن كان الأمر يتعلق بذنب ما لخروجي عن مسار يومي المعتاد. أراجع كل تفصيلة في هذا اليوم. لا شيء استثنائيا. حتى اشتهائي لأكلة ممبار خارج البيت لا يمكن التعويل عليها. ليس بإمكاني

التصديق أن حياة المرء كما عرفها يمكن أن تنهار من أجل أكلة ممبار.

في الرابعة عصرا، موعد قيلولتي، عرفت أن عهد التعسيلة ولى إلى غير رجعة وبدأ عهد الكلام.

جمعت زوجتي وأولادي في صالة البيت. توقعوا شيئا أعتبره كالعادة شيئا جللا في مصير العائلة، ويرونه تافها، أو أن ألومهم على تقصير ما اكتشفته فجأة بأثر رجعي وفق عاداتي في الحديث، لكني سألتهم عن الطقس.

دون أن أسمع إجابة وقبل أن أمنحهم الفرصة للدهشة واصلت حديثي من سؤال الطقس إلى الكلام عن التغيرات المناخية وأثرها على كل شيء، ذكرت معلومات أذهلتهم بشأن الأمر. أنا الذي لم أقرأ يوما كتابا أو جريدة، أنا كاره القراءة العتيد، أنا الشخص العادي الذي إذا رأى كتابا في يد شخص، سيفترض أن الاحتمال الوحيد لذلك هو كونه مقبلا على امتحان دراسي ويسأل الله له التوفيق.

من التغيرات المناخية فتحت معبرا لحديث آخر لم ينته عن كارل أوف وكيف كتب كارمينا بورانا، أنا الذي لم أستمع طيلة حياتي إلا إلى أم كلثوم، والتي أرى ما عداها دربا من الكفر والتعالي والخنوثة. فيما بعد سأدرك أني لم أكن دقيقا، سأعرف رغما عني أن أم كلثوم كانت الاثنين معا: ذكرا وأنثى.. الكمال والجمال كانا هنا بالضبط فيما رفضت الاعتراف به: في الخنوثة.

من الرابعة عصرا وحتى الرابعة فجرا لا أكف عن الحديث مع عائلتي، أنام جالسا وأنا أحاول استكمال روايتي عن التاريخ

بشأنه من أي مدخل: الطقس، كرة القدم، فِساء أطلقه أحد أفراد العائلة، طبيخ الزوجة، حيضها، العادة السرية التي يمارسها ابني الأكبر، بتسامح أزعجهم.

لم تكن تلك الأمور تمثل لي أكثر من مدخل للحديث عن كل شيء عبر أي شيء.

حكيت عن مغامراتي الجنسية صغيرا، وطول قضيبي، والأوضاع التي تفضلها زوجتي، تجربتي للخشن ذات مرة، شعور ابني الأوسط بالنقص، أنانية الأصغر وهوسه بذاته.

من كل شيء يمكن أو يصعب تخيله، كنت أجد طريقا لحديث لا ينتهي، بلا محاذير كنت أخشاها في حياتي السابقة قبل أن أصاب بداء شهوة الكلام، وهبت لذلك حياتي التي كانت تنهار من حولي، دون أن أشعر ودون أن أملك شيئا لمنع هذا الانهيار.

زوجتي أخبرتني أني لا أتوقف عن الحديث حتى في أثناء نومي.

كنت أصحو في موعدي في السابعة للذهاب إلى العمل ولا أكف عن إيجاد مداخل للحديث مع زملائي في العمل: من فسادهم وأسرارهم التي ظنوا أن أخفاءها سيجعلهم أكثر احتراما، نميمتهم الفاحشة كفرج لبوة.

واصلت حكاياتي ومعلوماتي التي لا تنتهي، رغم تنبيه مديري في العمل. اتخذت تنبيهه كمدخل للحديث عن معلومات ذكرت في كتاب ما عن أن جمال عبد الناصر كان جاسوسا إسرائيليا، لم أهتم حقا إن كانت المعلومة صحيحة أم لا. لكنها ذكرت في كتاب لم أقرأه من قبل.

لم أخبر أحدا عن الرؤيا التي صارت أكثر وضوحا الآن لنبع المعلومات التي أذكرها ولا أهتم بصحتها من عدمه: ثمة مكتبة كونية تضم كل كتاب ومخطوطة سطرها الإنسان. كانت الصفحات تنفتح أمام عيني، تقفز من مقطع في كتاب إلى آخر بسرعة البرق، تأتيني بصورة واضحة مهما كانت اللغة المكتوبة بها. كنت مجرد وسيط لسيرة الإنسان الحقيقية والمتوهمة لشائعة وجوده.

استطاع مديري أن يجد نقطة ما تحت بند «الإهمال الوظيفي» متغافلا عن المعجزة الكبرى التي أمثلها. خيرني بين الفصل والمعاش المبكر. وقعت أوراق المعاش وأنا أتحدث عن أهمية اللحظة التي قال فيها جاليليو هامسا عقب تراجعه عن رأيه لإرضاء الكنيسة: «لكنها تدور»، وعن أن إخناتون لم يكن سوى النبي إبراهيم، والد الديانات السماوية الثلاث والتي حولها البشر وفق كتاب آخر إلى عقبات ثلاث.

لم تتحمل زوجتي. فخططت لهجري بشكل مثالي. وجدت نفسي زوجا مخلوعا، وخططت لنفسها ولأولادي طريقة سفر إلى كندا لبدء حياة جديدة بها كلام أقل.

لم ينجح الجيران في طردي من العمارة عندما بدأت الطرق على أبوابهم للحديث. لكنهم صعَّدوا الأمر. اتفقوا على طريقة واحدة بعد مداولات استغرقت أشهر: اقذفوه بما تيسر. زجاجة ماء، كولا، كرسي قديم، صفيحة قمامة. كان على الرسالة أن تكون واضحة كي أعود أدراجي. كان جمهوري يلوذ بالفرار.

لكني توصلت إلى حيلة عندما أدركت حاجتي إلى مستمعين جدد.

مستمعون لا يتمكنون من الفرار بسهولة كما أن تعذيبهم بالكلام المتواصل سيرتبط بمدة زمنية محددة، سيكونون بعدها أحرارا.

أعجبتني الصفقة التي رأيتها عادلة.

كنت قد تخيرت المواصلات العامة: ميكروباص، ترام، قطار، أتوبيس، مترو. بدأت فيها بالتحدث إلى عابرين. مع الوقت كونت خبرة في اختيار ضحاياي المستعدين للاستماع قبل أن يدركوا أي رمال متحركة قد غاصوا فيها، من خلال عبارة أقذفها كبالونة اختبار بنفس التقنية: الطقس، كرة القدم، فِساء أطلقه أحد الركاب، لأتحدث عن كل شيء عبر كل شيء. جُبت مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها متحدثا.

لا أعرف إن كان المستمعون العابرون هم من ألهموني أن أبدل وظيفتي في كل مرة، لأصبح موجودا في الأحداث كبطل أو شاهد. كنت أصبغ على نفسي صفة تقنع الآخرين بثقافتي وأهليتي لما أتحدث عنه: طيار.. سفير.. عالم.. ضابط مخابرات متقاعد، أي شيء إلا كوني مجرد موظف. أنا الآن مونتير لسيرة الإنسان وخالق لآلاف السير المحتملة التي طمسها النسق.

استقرت حياتي بعد اكتشافي لحيلة المواصلات، حتى توقفت فجأة عن الكلام.

كنت في حديث عابر صار روتينيا في حياتي مع شخص لا أعرفه بجواري في ميكروباص. المكتبة الكونية التي أقرأ عبرها آلاف الاحتمالات لحقيقة الكون واثبا من مقطع إلى مقطع، قفزت الكتب فجأة من

فوق رفوفها في هلع، خوفا من كتاب ضخم يبتلعها واحدة تلو الأخرى أو يصوب تجاهها بندقيته، كتاب شره وقاتل محترف لم أتبين حقيقته.

الكتاب نظر إلى عيني بقوة، دون أن يملك عينين حقيقيتين. ثم كشف لي صفحة موجزة لسيرة حياتي الضحلة، وتاريخ موتي الذي اقترب، فتوقفت عن الكلام.

لم يرعبني تاريخ موتي قدر ما أرعبتني ضحالة سيرتي في حكاية الكون. أنا شخص تافه، يليق به أن يكتب قصة حياته شخص تافه مثله. لا أملك سوى القبول بك دون أن أعرف اسمك حتى. لن يكتب قصتي محمد حسنين هيكل مثلا، فهو شخص يقابل الزعماء والخالدين بالفطرة. لن يلعب معي الجولف. لكنك قد تلعب معي الطاولة ونتبادل ذكرياتنا التافهة بجدية. عرفت أشياء عن هيكل خلال رحلتي في المكتبة الكونية، أشياء تجلب الرعب، ولن توافق أي صحيفة على نشرها.

أنا لا أحد. لكن ذلك سيكون مناسبا لكلينا. فأنت أيضا لا أحد. لكن لدينا فرصة ضئيلة لنكون أشخاصا خالدين ولو دقائق، ولو بصدفة، قد تدفع شخصا ما يقاوم ملل الحياة لقراءة الكلمات التي ستكتبها عني في موضع بائس من جريدة بائسة).

***

أعددت تقريرا جيدا عن حالة فاروق علي، مقارنة بكونه أول تقرير أكتبه في حياتي، قلة الخبرة وحدها، جعلتني أغفل أمر الكتاب الكوني في التقرير. لم أشعر بأهميته. أو هكذا ظننت. لكن مع الوقت عرفت سبب إغفالي لذكر الكتاب في التقرير. كانت تلك اليد التي تخنق روحي. وتغلق معابر الدم إلى رأسي، كلما حاولت التفكير في الكتاب. تتوعدني أشباح في أحلامي، تخبرني: ليس الآن.

أعددت فيما بعد تقارير أخطر. حققت نجاحات بلا حصر غيرت من نظم وطريقة تفكير هيئة الأمن القومي للكوكب. ظهرت موهبتي الاستثنائية في كشف غرابة الأطوار بشكل لامع وبارز. سُرقت أفكاري العظيمة ونسبت لغيري -لهذا حافظوا علىّ وعاملوني كمنجم أفكار- أسموني «الموهوب» بألف ولام التعريف.

لكن ظل الخطأ الذي لم أنتبه لخطورته، بعدم ذكر الكتاب في التقرير كامنا ويكبر يوما بعد يوم ككرة ثلج تستعد لدهسي. لم أدر أيضا إن كان العقاب سيأتي لأني لم أسأل يوما ما عن مصير فاروق علي بعد أن سلمت التقرير. هو على أي حال كان ينتظر الموت بشكل طبيعي أو على يد رجال الأمن القومي للكوكب. على الأقل إن مات على أيديهم سيكون ذلك من أجل هدف أسمى.. ما مصير ضحاياي؟ علمتني التجربة أن سؤالا كهذا سيتحول إلى عقبة في طريقي إلى العظمة.

*****

عصابة حمادة وتوتو.. سيرة المشاء من العظمة إلى الفضيحة

لا تملك يوليا مؤخرة مميزة. نهدها صغير ولا يلين عابر لصداه. جسدها نحيل. قصيرة. شعرها مجرد إضافة لا هالة. لكنها تملك جاذبية شيطان يعد برحلة غواية ممتعة لا تعرف أين ينتهي مداها. وعد بالهروب من حمل ثقيل، من يوم صعب، من حكم بالإعدام، فرصة لحياة أخرى بعد الموت. وعد كاذب في العينين. ابتسامة تخبرك: أنا سهلة. جسدها فوق الفراش غريب، لين، ينساب كالماء بين يديك. لا يشبع ولا يحمل متعة استثنائية. ربما تأتي اللذة من كونه لا يشبع. الرغبة في حل مستحيل للحصول على اللذة النهائية، لا حل سوى اختراق الجسد، تمزيق اللحم النحيل لتصبح داخلها بالكامل. أن تحل فيها بقتلها أو قتلك، لتعرف لمَ أنت هنا الآن معها على فراش واحد دون شيء مميز فيها. أي سر تافه يجذبك إلى تلك اللعبة؟

أدركت إحدى حيلها. تتمثل ذكرها تماما. تعيد إنتاج آرائه. الأغاني التي يحبها. الأكلات التي يفضلها. تدلل أحلامه العصية على التحقيق وتتبناها كأنها حلمها الشخصي.

أي سر تافه يجذبك إلى تلك اللعبة؟ قتلها أمر غير واع وغير مسؤول. تكتفي بالممكن. فتقذف مرة أو مرتين على فخذها عوضا عن رغبة الضياع والفناء داخل الجسد لبلوغ السر واللذة اللانهائية. الإيلاج ممنوع، من الخلف ممكن، أحد عشاقها كتب على صفحته على فيس بوك ساخرا: «من ورا لحبيبي ومن أدام لصاحب نصيبي» . يزيد ذلك الأمر فتنة وغباء. كيف يمكن لفرج

بحواف أرهقه ذكور وإناث لا يمكن حصرهم أن يعتبر نفسه جائزة لمن آمن؟ أشك في الفائدة، نحن محض مني مهدور.

في المكتب كانت يوليا، أو يوليا المجنونة كما أسموها، تسطع مثل شمس، وتحلق كفراشة. هكذا كنت أراها. تلك المؤخرة المسطحة ملكي. الساقان اللتان تومئان من تحت الفستان فدائي. كانت ترتدي الفساتين عندما ترغب في إغوائي، أو تذكيري بما أغفل عنه.

كنت أعرف أي شيء تفعله في حياتي. تضع اللمسة السحرية التي تجعل ما أفعله لامعا. تمنحني الضجيج اللازم. قطعة البازل الأخيرة التي تحيل اللوحة شيئا مدويا كفضيحة، بالونا منتفخا. لكن من يعرف؟ لا أحد يصدق سوى ما يريد تصديقه.

كنت أواجه يوميا الحسد من زملائي ورؤسائي في العمل على عبدي المخلص الجديد. عبد يمنح كل شيء: الحب، العمل، الولاء، الجنس. كان الأمر حينها أكثر من مجرد رجل شرقي يتذكر فحولته خارج البيت، ثم يعيد كل شيء إلى بيته. كيف أشرح أني وقتها كنت أحمي نفسي من الموت، من العمر الذي يتقدم، من الخوف من فشل الرهان على الخلود. لا أحد يضمن من المشائين الحصول على الخلود في النهاية. ذلك شيء سمعناه ولم نره في جيلنا.

كنت أعيد تعريفي لنفسي بها. أرى الأشياء بشكل آخر مزينا بالبهجة ولو كانت زائفة. أعمل معها بانسجام. أنجح أكثر. كيف يعرفون أن هناك عاصفة مخبأة في جسد نحيل. جسد يمكن طيه كلعبة، ووضعه في جيبك أو في ياقة القميص.

كيف يعرفون أن يوليا التي حولتها من فتاة ضائعة ومجنونة صنيعة يدي، قد تكون جائزتي بعد عمل مرهق ومخلص، أشك في نتائجه. هذا العبد شكلته على يدي.

ربما لم يكن ذلك دقيقا تماما، عندما أتذكر الآن وأنا أدون كل شيء من الذاكرة الخائنة. يوليا المجنونة، لم تكن عبدة. كان ذلك محض مراوغة. مانحة الوعد للعابرين، لمن لا يستحق.

هل خانتني؟ جاءتني تقارير عدة عن خيانتها لي. لكن متى؟ أنا أدفنها تقريبا في مخططي الخاص: العمل، الخروج، النميمة، الجنس. بيتي لا يحصل على شيء مني الآن سوى النوم.

وعدت يوليا بالزواج، بعد حصولي على الطلاق الذي ماطلت فيه. لنصبح شريكي نجاح ومتعة رسميين.

كنت أقول هذا لكن بلا رغبة أو إرادة حقيقية، لم أكن أعرف إن كان هذا ما أريده حقا. الشك يقتلني، أرغب في الهروب من نزوتي ولا أستطيع. علاقتي بها صارت طريقة أخلاقية ليعبر الحاسدون عن غيرتهم من سيرة الرجل الناجح والخائن الذي سلم عنانه لـ«شرموطة». كيف رأوا ذلك رغم أن أداءها المعلن أمامهم ليس إلا خضوعا تاما لمخلصها ومنقذها من أوغاد دمروا حياتها، كما روت لي نسختها الخاصة من سيرة حياتها.

***

كانت يوليا أحد غريبي الأطوار الذين نطاردهم. اكتشفها أحد تلاميذي والعاملين تحت إدراتي. هو نفسه كان أحد غريبي الأطوار الذين نطاردهم. كان يتدرب في المشروع الذي أشرف عليه بتحويل غريبي الأطوار إلى مشائين يكشفونهم.

عبده. كان مدمنا صعلوكا قبل أن أعيد اكتشافه لأمنحه فرصة إلى العظمة. قدم تقريرا مكونا من أوراق كتبتها يوليا بخط يدها، مرفق به مجموعة من صورها. ما أن وقعت عيناي على الصور حتى شعرت بالحياة تدب كومضة في أوصالي.

كنت مرهقا من تتبع طريق العظمة. تسع سنوات من العمل الجاد والمخلص. أشك في جدوى ما سأحصل عليه. كانت هبتي في أزمة. وعملي أيضا. هبة ينقصها الشغف والحماس. كان يكفيني أن أسمع صوت يوليا ولو عبر هاتف لأشعر بتلك القوة مجددا. كنت أحيا من جديد وهبتي تستعيد كل شيء: النجاح والانتصاب والحياة، شهيتي المفتوحة لطعام كنت قد نسيت أني أشتهيه، لخمر طيب المذاق كنت أخاف أن أقترب منه لا عن إيمان بحرمانيته، لكن خشية أن أتحول لمجرد سكير فاشل آخر، الرغبة في رؤية العالم وإعادة اكتشافه.

لقد عرفت رغباتي الخفية جيدا وحولتها إلى أمل قابل للتحقيق. كانت تخطط معي للسفر إلى أركان العالم الأربعة.

***

كانت كوابيس الموت قبلها تطاردني. أشعر بالنهاية. بالملل. رغم صعودي بقوة في مهنتي. تماما كفاروق علي، الرجل الذي سلمته دون أن أعرف مصيره.

ربما لهذا اخترعت مشروع إعادة تأهيل غريبي الأطوار الذي استهدف تحويلهم إلى محافظين على النظام. ربما لانتمائي القديم إليهم.

عوملت مرات كمشاء غير أصيل وحوربت بسبب انتمائي القديم إلى فئة غريبي الأطوار. لم تحمني سوى هبتي. لذا اخترعت مؤسستي الصغيرة داخل هيئة الأمن القومي للكوكب. الصفقة عادلة: سأهبك حياتك التي ستدمرها الهيئة مقابل أن تصير مشاء.. سأصطاد غريبي الأطوار بكفاءة أكبر.. عبر مساعدة غريبي الأطوار أنفسهم.

ناضلت كثيرا للحصول على موافقة الهيئة. نجح مشروعي وحقق نتائج باهرة. حتى إن مديري المباشر الذي تفاوض معهم، نسبه لنفسه، ثم نسبوه هم أيضا لأنفسهم كإنجاز أصيل من إنجازات المشائين الأعظم في هيئة الأمن القومي للكوكب.

تركتهم ينسبونه لأنفسهم دون ضجيج، مقابل استمرار المشروع وإسقاط أصوات أعداء النجاح الذين رأوا في ما أفعله خيانة للهيئة وأني أحرر في الأساس أرواح غريبي الأطوار من مصائرهم. خيانة لمشروع ولد بلا خونة. انقلب الأمر ضدهم بعد نجاح الفكرة، وارتفعت أسهمي

***

اصطدت الولد البائس من المتاهة التي ندفع إليها غريبي الأطوار. عبده. لم يتخط الثانية والعشرين عاما، يتكلم كمدمن. يجمع أعواد الثقاب منذ بلغ السابعة من عمره، عندما ادعى أنه رأى أعواد ثقاب تنطلق من مكمنها في أركان العالم الأربعة، تجمعت في صحراء ثم اشتعلت كلها في آن، أضاءت كشمس.

لا أحد يعرف كيف وصل ابن السابعة إلى الصحراء. الطفل، عدو الشمس. وهو ما استخدمناه لدحض ادعائه.

في هيئة الأمن القومي للكوكب، كنا نعرف أن ادعاء عبده صحيح، بل ونعرف أن ذلك سيحدث. وأن تلك الإشارة الكونية العظيمة، خلقت لتعلن عن شخص تافه مثل عبده، لا قيمة لحياته أو لمماته سوى تعلقه بجمع أعواد الثقاب، حتى هؤلاء لا نفلتهم من المراقبة.

سطوع أعواد الثقاب كشمس، جعلت روحه تعاكس جسده وتوقفت عن النمو في السابعة من العمر. لكن على عكس توقعاتنا. كان عبده يخبئ موهبة. كان يرى حقيقة الناس: مجرد أعواد ثقاب متراصة وقابلة للاشتعال كشمس تقع رويدا رويدا. تقع الأعواد الأجمل، الأحلام المؤجلة المنسية، التي يظنونها زائدة عن الحاجة ولا يلقون لها بالا.

كان عبده يجمع أعواد الثقاب بصبر ودأب. قبل أن يبلغ العشرين، جمع أكثر من مليوني عود ثقاب من الأعواد التي تتساقط من الناس. كنت أول مشاء يكتشف ذلك لكني لم أعرف ما الذي ينوي

فتى لم يبلغ العشرين من عمره أن يفعله بمليوني عود ثقاب.

جمعت عنه معلومات كثيرة. رُفِت من كل الوظائف التي عمل بها منذ سن السابعة بشجارات عنيفة، ازادادت حدتها مع تعلقه بالخمر الرخيصة وأقراص الكيميا.

وحدي عرفت عبر خبرة السنوات، أنه يملك رغم ما يبدو عليه من ثورة روح عبد أصيل. جزء ما يقبع في روحه يجعله يرتاح لهذا الوضع: عبد ينتظر الفرصة الجيدة للقتل، قتل سيده تحديدا.

غرفة كاملة احتلتها أعواد الثقاب. كانت مرتبة بعناية. حسب نوعها، أصلها، وظيفتها، حلم صاحبها المؤجل. كان يملك كنزا لا يعرف قيمته إلا مشاء موهوب مثلي: خريطة كاملة للأحلام والأمنيات غريبة الأطوار، المكررة منها والنادرة.

تقربنا من بعضنا البعض. جلبت له وظيفة. كان يخدمني في كل شيء. يحمل الخضراوات للمنزل، يمسح زجاج سيارتي، يذهب بطفلي إلى الحضانة. كنت في حاجة إلى كلب مدرب مثله، أستغله أطول وقت ممكن وأسمح له باستغلالي أطول وقت ممكن قبل أن أسلم رقبته إلى الهيئة.

اعتيادك على كلب مدرب أمر ليس هينا. العبودية أنقذت رقبته.

عرفت عبر تقاربنا غرضه من جمع أعواد الثقاب. كان سيحرقها في الصحراء مرة أخرى. الأبله، عدو الشمس. رغبته اقتصرت على إعادة العرض الذي رآه مرة في السابعة من عمره ونجحنا في دفع الجميع إلى إنكاره. سيصنع شمسه فقط ليبتسم مرة أخرى.

كان عـلي أن أمنعـه. فعـدو الشـمس كان يملـك سـجلا مرعبـا للأحـلام والأمنيـات غريبـة الأطـوار. المشـاؤون الأعظـم فقـط في هيئة الأمـن القومي للكوكـب هـم مـن يملكـون خريطـة كتلـك، كأحـد أسرار تفوقهـم. كنـز لا يعـرف قيمته وسـأحافظ عليـه كسرّ يهبني خطـوة في طريقـي إلى العظمة.

أرسـلت فرقـة لنـزع كنـزه مـن الغرفـة التـي جمـع فيهـا مليـوني عـود ثقـاب. عمـل جبـار. نـصر محقـق.

فائدتـه انتهـت بالنسـبة لي، كنـت سأسـلمه إلى حتفـه. لـولا أنـه مـس قلبـي بقدرتـه عـلى العبوديـة. كل مشـاء عظيـم كان في حوزتـه كلـب مـدرب. ذلـك مـا تعلمتـه مـن سـير المشـائين العظـام. يسـمونه أحيانـا صديـق البطـل. لكـن هـذا الكلـب، سـينتظر الفرصـة المناسـبة لينقلـب عـلى سـيده بعقـري مـن موهبتـي، قضيبـي. هكـذا أنبأتنـي البصـيرة. طردتـه مـن الوظيفـة التـي جلبتهـا لـه، ومـن شـقته التـي ورث إيجارها القديـم مـن والـده، لم يجـد نقـودا للخمـر الرخيصـة. كل خيوطـه في يـدي. هكـذا أضمـن ألا ينقلـب عـلي.

كانـت موافقتـه عـلى الانضـمام إلى هيئـة الأمـن القومـي للكوكـب سـهلة. في الواقـع نحـن لا نحتـاج إلى موافقـة أحـد. أنـت يـا مـن تقـرأ مـا دونتـه الآن، بأريحيـة وأنـت تهـرش في خصيتيـك أو تسـتمعين إلى أغـاني تخفـف ملـل القـراءة قـد تكونـين دون أن تـدري أحـد العاملين لحسـابنا.

لدينـا أسـاليبنا بخصـوص غريبـي الأطـوار. نقتلهـم لنحصـل عـلى المعرفـة الكامنـة في فصـوص أدمغتهـم. أو نسـتخدم أجهـزة تشـويش عاليـة القـدرة، يعيشـون بسـببها حيـاة بائسـة، نفقدهـم القـدرة عـلى

تمييز ما إن كانوا على صواب بأحقيتهم في العيش كما أرادوا أم لا، ندفعهم عبر الشعور المقيم بالذنب إلى الاكتئاب تارة، وللجنون. أما إذا كان الأمر يستحق، فنجعل حياتهم تسير وفقا لمخططاتنا، نحصل بالضبط على ما نريد. نسرق الأفكار المهمة عبر قدرتنا على تسجيل هواجسهم. نصدر تلك الأفكار للدول المتقدمة التي تخضع لسيطرتنا وتستخدمها أو تتدهها بشكل شرعي ومنضبط، مقابل مليارات سنوية.

نمنح أفكار غريبي الأطوار الثمينة إلى أنصاف مواهب مغمورين، نجعل منها بإرادتنا عنوانا للنجاح والموهبة، كما فعلنا مع ديزني وغيره. ديزني استطاع عبر تلك الأفكار أن ينفذ ما أردنا، أن يخصي الحكايات الشعبية القديمة، وينزع توحشها الجنسي وانفتاحها على الجانب المشرق من حياة الإنسان: غرائزه الفطرية. وجعلها مجرد جوانب مظلمة مخيفة ومنسية ومدانة. لا شهوة أو عنف، فقط حكايات مسلية ناعمة، ينتصر فيها النمط. هناك أشرار مطلقون وطيبون للنهاية. يدور الصراع، ينتصر الأكثر التزاما بالنمط. الخير المطيع على الشر الطموح. أنثى تنتظر الأمير لا تغويه. الأنماط ستسهل لنا عملنا كثيرا، قولبة أعدائنا، سهولة إلصاق التهم وتصعيد من أردناه إلى القمة.

في حالة عبده، استخدمنا أجهزة التشويش لتهدئة الجزء المسعور بداخله وتحفيز جينات العبد المستعدة دوما. بعد فترة تدريب أشرفت عليها بنفسي صار عبده أكثر إخلاصا من مدير الهيئة نفسه. كنت وحدي أعرف أن ذلك ليس آمنا بما يكفي. لكني كابرت

مـن أجـل إثبـات نجـاح مشروعـي بتجنيـد غريبـي الأطـوار للعمـل كمشـائين، وكي يسـاعدني عـلى جمـع المزيـد مـن أعـواد الثقـاب بشـكل سري بعيـدا عـن أعـين الهيئـة. القفـزة الكـبرى داخـل مسـيرتي المهنيـة. والكنـز الـذي لم يعـرف عبـده قيمتـه قـط.

أبـدى عبـده نجاحـا معقـولا في اصطيـاد غريبـي الأطـوار، كنـت أضخـم مـن هـذا النجـاح أمـام الإدارة مـبرزا معـه هبـة زائفـة، تبعـد الأعـين عـن هبتـه الحقيقيـة: رؤيـة أعـواد الثقـاب في الأجسـاد.

اضطـررت إلى منحـه بعـض الأسرار، قليـلا من أسرار هبتي، كنـت أنبهه إلى ضرورة الالتفـات إلى أصلـه وذاكرتـه ليحقـق المزيد من النجـاح في العمل.

شـخص بمنشـأ حقـير مثلـه، كان سـيرى مـا لا نـراه. كنـا دائمـا نحـن المشـائين، مراقبـي العـالم، ننتمـي إلى الطبقـة الوسـطى. تقـف أعيننـا عنـد حـدود ترويضهـا وزرع الخـوف بـين أبنائهـا، واصطيـاد غريبـي الأطـوار منهـم. لـذا وظفـت عبـده جيـدا في إدخـالي إلى أوكار جديـدة مـن الطبقـات الأدنى التـي كان يحفـظ سِـيرها.

عندمـا اتبعنـا هـذا التكتيـك، أبـلى عبـده بـلاء حسـنا. جلـب لي أعدادا رهيبـة مـن غريبـي أطـوار لا يمثلـون لنـا قيمـة في الهيئـة. لكـن ذلـك جعـل إدارتي هـي الأكـثر نشـاطا، نقـدم أرقامـا تفـوق الأهـداف التـي وضعـت لنـا. سـينتظرون طويـلا قبـل أن يدركـوا الخدعـة وأننـا نقـدم أرقامـا فقـط. غريبـو الأطـوار مـن الفقـراء، لا يـؤذون إلا أنفسـهم ولا يمثلـون خطـرا عـلى أي نظـام اجتماعـي.

مـن النفايـات البشريـة، المهاجريـن، العاطلـين، المشرديـن.. في ضربـة

واحدة سأصنع مجدا جديدا.

الفكرة سرقتها من سطر في كتاب يهاجم تحويل الفقر من خلل في بنية الاقتصاد إلى جريمة يتحمل وزرها الفقير، ومعاملته كمجرد شخص منعدم الكفاءة، مجرد حالة يجب تحويطها بالأسوار، وتحطيم الضمان الاجتماعي لصالح فكرة الشفقة والإحسان. لم أحب الكتاب، ولم أفهم منه الكثير، لكن هذا السطر ملك فؤادي تماما.

الفكرة التي رفضتها هيئة الأمن القومي للكوكب في البداية: إعادة تدوير النفايات البشرية. محاصرتهم بشكل أكثر دقة، تحويلهم إلى عملاء لا يعرفون أنهم كذلك، عبر الأقمار الصناعية لتوجيه سلوكهم.

سنجعل منهم خط الدفاع الأول عن التقاليد، الأعراف، غريبي الأطوار، حراس ضد الخروج عن النمط، مع السماح لهم بممارسة عاداتهم في تحطيم النمط والتقاليد والأعراف داخل أسوارهم العشوائية المحاطة جيدا.

هم خامة جيدة للموت المجاني أيضا. أو تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة عبر تلك الأجساد المهترئة التي تصلح كوقود أقل كلفة في مصانع بث الخوف. نعم هناك مصانع سرية وظيفتها صناعة الخوف.

أنت تشتري الخوف بإراداتك دون أن تشعر. مادة ترش على بار كود كل منتج تشتريه. كل بار كود لمنتج ليس إلا صكا يعني أنه مر على مادة الخوف أولا. هكذا يشتريه العميل/المواطن دون حاجة إلى دسه داخل علبة الجبن.

كانت رسالتنا التسويقية الرئيسية: أنت في حاجة إلى الخوف.

للسيطرة على حياتك وتجنيبها المخاطر. نحن نقدم قارب نجاة وسط ريح عاصفة، وملحق بالعرض أكاذيب وإغراءات أخرى منمقة، كتحفيز حاسة النجاة لديك، تنمية قدرة العميل على التواصل الاجتماعي الفعالي، الإنذار المبكر بالمعارك الخاسرة.

لن يذكر اسمي كصاحب الفكرة الأصلية لمشروع إعادة تدوير النفايات البشرية. سيقولون إنها فكرة قديمة قدم البشرية. لم أفعل سوى إعادة إحيائها. أعرف الطريق لتنفيذ أي فكرة: سألهم أحد رؤسائي بالنظرية التي سيقدمها باسمه في صفقة طيبة: هو سيظن أنه مهم، وأنا سأنجو بفعلتي. هكذا أحول طريقتي من خدعة إلى عبقرية.

سمينا النظرية بقانون اللاشيء العظيم. وكتبت لمديري الدراسة المطولة بنفسي. مع رشاوى وهدايا فاخرة ومميزة، تأتيني بها القطط السبع من أرجاء العالم كلما وقعت في مأزق.

يمكنك أن تراني نذلا. لكني مختار أيضا. منذور لشيء ثقيل.. نبي على قوائم الوحي.. أنتمي إلى شجرة وارفة: نبي لا يجيد الغناء، الحب، الرسم، الكراهية، لعب الكرة، الكتابة، التيقن، التركيز، المداومة، العزف، الصبر، الألم، العراك، اصطياد البنات، الحديث المشوق.. لكن يملؤه الأمل أنه مؤهل لشيء ما.

***

عبده لم يأتني بتقرير واحد مشبع ومفصل. لم أكن أحاسبه. كنا نسدد خانات الأرقام فقط.

لكنه ذات يوم جاءني بتقرير عن يوليا بلغة ركيكة. معلومات غائمة ومنقوصة. هذا التقرير سيملؤه مشاؤون بلا عدد، لكن سيظل دوما مشكوكا في صحته برواياته المتضاربة. لم تواجهني حالة كتلك من قبل.

عندما أصل لأقرب التقارير عن يوليا للدقة سأخط تلك السطور بنفسي :

«لم تك شيئا. كانت فراغا صنعه مَنِي الرجال. كل رجل تمثلته وأسال منيه عليها صنع ما هي عليه الآن. ستة رجال محددين على الأقل وعابرون بلا عدد لم نتمكن من تسميتهم، سنطلق عليهم طوب الأرض.. من هؤلاء خلقت يوليا، التي كافحت كثيرا لمحاولة استبدال حقيقتها كصورة بلا معنى، هواء يتمثل ما حوله.. لقد صنعت صنعا من تلك المضاجعات».

«كانت تستمع من صغرها إلى ما يسمعه الآخرون. ثم رأت ما رأت: بعض من الحقيقة تسرب إليها من مني رجل عابر في ليلة سكر لم تر فيها وجهه أو تتذكر من هو حتى. تنكر في بعض الأحيان أن تلك الليلة قد حدثت أصلا».

«هكذا بدأ الأمر إذن. عندما أدركت ذلك الفراغ. ثقب الروح الذي لا يملؤه شيء. أصيبت بالشره نحو ما يمكن لمسه: الطعام، الجنس. لم تعد تستمتع بالمضاجعة، لكن بأكل قضبان عشاقها وأثداء عشيقاتها».

«لم تكن إلا مجرد بنت عادية محجبة تمتحن الثانوية العامة، وتنتظر الزواج. عندما تعرفت على مصور عن طريق المراسلة على الإنترنت. أدخلها عالما جديدا يقرأ الشعر، يسمع الموسيقى ويشاهد الأفلام التي لا تعرضها القنوات. قرأت ما قرأه، واستمعت إلى ما سمعه، وشاهدت ما شاهده. تمثلته تماما. منيه المسال أخبرها أنه مجرد باب للعبور إلى الحياة وليس الحياة. تركته. لا تحب ذِكره. لم نعثر على معلومات عن تلك الفترة. ذاك ماض بعيد».

«انجذبت رويدا رويدا إلى مدعي غرابة الأطوار، الذين يحاولون عبر هذا الادعاء إخفاء هويتهم المحافظة المرتبكة المعقدة أمام غرابة العالم. هؤلاء يخفون جنونا لا يلتقطه المشاؤون كإدانة، لأنه نفس جوهر ما يرغب به المشاؤون وهيئة الأمن القومي للكوكب. جنون الحفاظ على كل شيء كما هو أو السيطرة على مسار الأشياء. الفارق بين مدعي غرابة الأطوار وغريبي الأطوار أشبه بمن لا تُعبر أرواحهم عن أعضائهم الجنسية، أشخاص عاديون معبؤون في الجسد الخطأ. لم تدرك يوليا الفارق قط».

«جاذبية مدعي غرابة الأطوار، كان يضاعفها جنون إحساس هؤلاء المدعين بالاضطهاد. أنهم انتظروا طويلا شيئا لم يجئ. يشيرون إلى شيء ما خاطئ في مسار الزمن الذي يتخطاهم. خانتهم جميعا وتعللت بخيانتهم لها».

الضربة الأكثر قسوة وسبب إعيائها الأخير، كانت بسبب أحد مدعي غرابة الأطوار.

سمير حامد. معذب آخر. بكسر الذال وفتحها. تخطاه من النبوة دون أن يحقق شيئا في حياته. كان يظن أنه سيتوج بشيء ما أو يلهم بشيء ما في سن الأربعين، ربما النبوة نفسها. لكنها لم تأته.

يردد دوما أننا نستطيع العودة إلى أربعينات القرن الماضي بقليل من الجهد. حيث كل شيء نقي وناصع كنبع لم يمس. الأثر الذي توقف مع بداية السبعينات إذ بإمكانه أن يعيش حياة عظيمة، بعدها انهار كل شيء فجأة.

الزمن لا يمثل لحامد وأشباهه إلا لغزا يجب إيقافه. رغم أن أيا منهم لم يحضر من تلك الفترة إلا طفولة قد لا يتذكرون شيئا منها. نحيب وحنين إلى عصور لم يروها.

كان حامد ينتقم منها، كأنه ينتقم من الزمن الذي لا يستطيع إيقافه أو إجباره على العودة إلى الوراء.

كل محاولات يوليا لإخراج وكتابة أفلام قصيرة، كانت في الأساس محاولة لتمثل ما يحاول حامد فعله، هذا ما تسرب إليها من منيه. يعدل لها كل خطوة فيها بسخرية فجة، يشككها في صلاحيتها. ذات مرة «رل» سجائر حشيش من ورق سيناريو لها دون أن يطرف له جفن.

لا يقبل جدلها. لا يقع في خطأ. هي المذنبة على الدوام. متشكك في كونها تخونه. ربما لأنه يخونها أيضا. تمثلت ما رآه. فخانته فعلا دون أن يدرك. يخبرها عن صحيح الأشياء وشروح ومتن وهوامش وشريعة صحيح الأشياء، التي يملك وحده دليلا عليها.

رفض أي مساعدة منها له في مشروعه الوحيد الذي لم ير النور قط ولو بنصيحة: فيلم وثائقي عن حياة الممثل مجدي وهبة.

نرجسيته هي السبب في الرفض. فهو يظن أن ملامح وجهه وسيرة حياته يشبهان مجدي وهبة. مظلوم مثله. موهوب لم يأخذ حقه. ظهر في العالم في التوقيت غير الصحيح. كان عليهما «أن يظهرا في الأربعينات حيث كل شيء نقي وواضح ولم يتم إفساده».

مشروع الفيلم لم ير النور قط «منتظرا كماله» الذي لن يأتي أبدا. حديثه الدائم عن رغبته في إخراج فيلم عن حياة وهبة، منحه حضورا وبطاقة تعريف «الرجل الذي يعد فيلما وثائقيا عن مجدي وهبة منذ عام». صاروا عشرة أعوام، زادوا إلى خمسة عشر عاما.

تحدث عنه في أحاديث صحفية نادرة كمتخصص، ولقاء تليفزيوني وحيد على قناة نايل سينما التي لا يراها أحد، والتي اعتبر ظهوره على شاشتها انتصارا.

لم يعط سمير يوليا ما أرادت قط، قلبا خالصا لها. اكتشفت بعد خمسة أعوام أنه سيطر عليها بالكامل، ودمرها بالكامل أيضا. خانا بعضهما البعض واكتشفا خياناتهما تلك. خيانة من تحب سيصير عرفا يميز علاقات يوليا، ستجتهد في آليات إخفائه أكثر. تركته محطمة. ودخلت علاقة مع صديق لهما بدأتها قبل أن تتركه، كان روائيا يشق طريقه بالتطفل على العالم. جاءها سمير بوجه ضعيف ومتسامح لم تعتده منه، أخبرها بنبرة ميلودرامية، أن

هناك اشتباها في إصابته بالسرطان، وأن هجرانها له جعله أضعف في مواجهة المرض.

كانت أفضل ليلة نام معها فيها. للمرة الأولى لا يشعر بغصة أن تسيطر هي على كل شيء. أن يترك نفسه لجسدها. ليعطيها كما لم يعط من قبل.

استمرت في العلاقتين معا، دون أن يطلب منها سمير إنهاء علاقتها مع صديقه. تعامله معها صار أقسى مما كان. أكثر غضبا ونقمة على كل شيء. عرفت منه أن الاشتباه في إصابته بالسرطان كان خاطئا. ابتهجت لكنه لم يكن سعيدا. أدركت أنه كان يتمنى أن يكون مصابا بالسرطان فعلا. كان يرغب في موت كارثي قبل أن يدب الشيب في رأسه وتترهل حيويته. خاصة بعد أن فوتت النبوة حضورها في موعدها بسن الأربعين. كان يرغب في موت يجلب له التعاطف والتقدير كموهوب لم تُعترف بموهبته حيا وخطفه الموت مبكرا. أمل أخير انتهى الآن.

ردت على غضبته تلك المرة ببرود. لا يعرف المرء أبدا لم عليه أن يقطع مسافات تمزق قلبه وروحه قبل أن يدرك أنه في قلب مستنقع من خراء. حتى العودة لن تجدي. فالخراء سيصير جزءا من روحه، جزءا قد يطلق الندى وتحوم حوله الفراشات. نتحول مع طيلة البقاء في الخراء إلى أحد صانعيه دون أن ندري.

حاولت أن تخبره أنها الآن، تقطع علاقتها به تماما وإلى الأبد. وأنها تعرف أنه لم يطلب منها أن تقطع علاقتها بصديقه، ليرد ضربة

خيانة صديقه له بخيانته مع نفس المرأة. قال لها بنبرة مرارة أشعلت الكراهية في قلبها كشمس لا يمكن إنكارها: لم أعد أستحق العطف لأني لم أعد مصابا بالسرطان.. أليس كذلك؟»

ظلت تعالج من أثره عاما كاملا لدى طبيب نفسي. دون أن تستطيع التوقف عن مضاجعته خلسة من حين لآخر. كان يستمتع حقا بنفسه معها كخائن لصديقه الذي خانه معها أكثر من استمتاعه معها عندما كانت فتاته. البثور غزت جسدها بالكامل. طاردها كابوس متكرر خفت وطأته وصار ممتعا. تحلم بأنها تقتل. انتبهت لمتعتها وهي تفرم شخصا ما في خلاط ضخم. الرقص ببلدوزر فوق أشلائه. إذابته في حامض. عرفت أن السيئ في الحلم ليس قدرتها على القتل، قدر ما كان حيرتها الحقيقية في إخفاء معالم جريمتها. لو نجحت في ذلك ستستطيع تكرارها بنجاح دون قلق.

تقوم من النوم فزعة تتحسس رقبتها من أثر حبل المشنقة. العبارة التي ستكتبها على فيس بوك: «ليس الخطأ في القتل، ولكن عدم التدرب على إخفاء الأثر».

نفذت حلمها: ابتلعت قضيبه في أثناء مضاجعة واحتفظت به، أطاحت برقبته. أذابت الجسد في حامض.

ظلت تلك عادتها. كما أشارت التقارير: آكلة قضبان وأشداء. لَمَ لمْ تأكل قضيبي؟ هل أحبتني حقا؟ خشت من قدرة الأمن القومي على البطش؟ أرادت إطالة اللعبة أكثر؟ هل حملت مخططا آخر؟

أم أن ما أطلق عليها كان محض إشاعة؟

ما أعرفه أني لم أصدق حتى التقرير الذي كتبته بخط يدي. عليك أن تراها لتفهم. بنظرتها المستكينة، ببراءة وجهها. لا يمكن لوجه كهذا أن يحمل شرا لأحد ناهيك بأن يكون قاتلا وآكل قضبان وأثداء.

ضاجعت عبده ثلاث مرات، دون أن تأكل قضيبه. فقط تركته حائرا. لا يعرف عبده لم وافقت على مضاجعته بسهولة، ثم رفضت فجأة. أبلغ عنها انتقاما لمعاملته كثور مزرعة.

خطرها كان أبعد مما ظن عبده، لا يقتصر على كونها قاتلة. خطرها الخفي بدأ مع الرجل الذي ضاجعته في ليلة سكر دون أن تتذكر وجهه. لقد نقل لها بعضا من الحقيقة وكشف لها الكثير من أساليب هيئة الأمن القومي للكوكب.

هذا ما جعلني أتوقف عن استقبال تقارير المشائين، وأتولى المهمة بنفسي.

***

قضيبي توقف عن الانتصاب بقوة في مواجهة غريبي الأطوار. هبتي؟ سأداري ذلك كبهلوان من خلال لعبة عبده واستغلال خريطة أحلامه وفي حشد أرقام ومشروع تجنيد غريبي الأطوار كمشائين. كنت أصحو يوميا على كوابيس اكتشاف فقداني للهبة. النجاح ليس إلا عداوات تتربص وتنتظر الفرصة الملائمة للدغ كثعبان. قد أنجح في الإدارة. لكن الطريق إلى الخلود والعظمة يحتاج إلى هبتي.

كنت قاربت على الاستسلام. رغم أن شيئا كان يخبرني أن كل ما في الأمر أني فقدت شهوتي تجاه أي شيء. ما أن ظهرت يوليا، رائحتها في التقرير، صورتها على فيس بوك، كان قضيبي ينتصب كشاب عفي. بكامل قوته وحياته.

كان ذلك غريبا حتى إني أنكرته مرارا. الموهوب المجتهد ذائع الصيت، بائع الدنيا بالخلود، الذي أفنى عمره مقابل الوصول إلى السماء، ثم العودة متحكما ومديرا لهيئة الأمن القومي للكوكب، يواجه خطره الأكبر: أن يصحو وقد انتشلت موهبته. لم أنجح في التعرف على غريبي أطوار، كان اصطيادهم بمثابة لعبة تافهة بالنسبة لي.

حبي لزوجتي لم أعرف له مثيلا. لكني لم أعد أشعر بقوته بين أصابعي. ربما بسبب انشغالي بالخلود. لولا، زوجتي الطيبة كمسك لم يعرف أحدا سواي. أول لمسة كانت من نصيب أصابعي. طاهرة كبياض الثلج. تذكرني بنفسي صغيرا، تائها، متعجبا، تتحمل كل شيء من أجلي، ملاك لا يقتله أحد سواي. خططها المستقبلية هي أنا. جميلة ببساطة. لدينا ولد جميل.

أحببت زوجتي بتدرج يشبه الحياة. تشربتها تماما ببطء سرى في دمي. أماني الخاص وفردوسي. لم تكن تعرف عملي الحقيقي. كانت تظن أني أعمل بالصحافة. أغلب المشائين يغطون عملهم الحقيقي بغطاء مهنة الصحافة، مبنى جريدة الأهرام كان مرتعا لنا.

محمد حسنين هيكل أول من اخترع اللعبة في مصر. مشاء أعظم. وضع القواعد وراقبها. لم يكن دوره يقتصر على التنظير لدولة

المشائين بقيادة جمال عبد الناصر. دوره الحقيقي في أن يصبح مثالا يحذو الصحفيون حذوه. أن يظلوا مشدوهين بشخصه. كمثال وحيد للنجاح في تلك المهنة، يخفي عليهم سبل النجاح الأخرى.

كان ذلك هو دور المشائين العظام الجوهري: خلق حقيقة تحجب الحقيقة، معرفة تمنع المعرفة، ألا نرى سواهم فلا نرى شيئا، ولا نعرف ما يجب أن تكون عليه الأشياء حقا. سيصكون التعريف الأساسي، ما سواه هو محض غرابة أطوار.

كانت زوجتي تؤمن بشيء آخر أبعد من الطموح والنجاح: فردوس مقيم، بلا منافسة أو قتلى، كانت تخبرني كلما كابدت بهذا الطريق، فقط لو آمنت. لكني لم أفعل.

***

كانت يوليا تظن أن ضابطا خفيا في المخابرات المصرية يتتبعها، ويسرب إليها المعلومات التي بدأت بنشرها على فيس بوك، رغم أن الحقيقة هي أن مني رجل عابر كان السبب في أن تكتب:

«لمبات النيون في بيتي.. مريبة.. تنطفئ لساعات، وتضيء لساعات بلا سابق إنذار. بالوعة الحمام أيضا تشاركها التردد. أوقات تعمل بكفاءة، ثم تكتم فجأة وتسبب غرق بيتي بماء المجاري، بشكل أعجز كل السباكين. أعرف أنهم يرغبون أن أجن. ما أن انصرف السباك.

سأخبركم الحقيقة يا أصدقائي، لن أخشى شيئا. لمبات النيون والبالوعة تعمل كلها بتقنية الموجات والتحكم عن بعد لتفسد حياتي وتمنعني من أي راحة.

يمكن التحكم في البلاعات وكتمها وتفجيرها بالتحكم عن بعد عبر ضغط المواسير بالموجات الموجودة في كل مكان حولها، موجات البث التليفزيوني والحرارة والضوء والصوت وتحت الراديو وغيرها، الأمر نفسه يمكن استخدامه للتحكم بالماء وقطعه وزيادة ضغطه، يمكن أيضا التحكم في لمبات الإضاءة عبر وصلة لتسريب الكهرباء أو تكثيفها، كل هذا يحدث بالتحكم عن بعد.. نحن بما كل ما نملك.. وأينما تحركنا ملك لعبث أجهزة المخابرات».

من السهولة أن ترى في ما كتبته يوليا شيئا مضحكا وتافها وخياليا. لقد اعتمدنا على ذلك. لكن الحقيقة أن هيئة الأمن القومي تفعل ذلك.

لم يكن ما كتبته يوليا أول تسريبات عن كيفية عمل الهيئة، سبقتها تسريبات أخرى من أشخاص مختلفين، لكنها كانت تسريبات لأشخاص محاصرين وغير مقروئين، وكنا نكتفي بالتشويش على أدمغتهم، واصطيادهم في هدوء وصمت ونزيد أفعالهم غرابة لننفي عنهم أهلية الصدق.

خطورة يوليا تكمن في متابعيها: 50 ألف شخص يتابعون حسابها الشخصي على فيس بوك بشغف. ويمنحونها التكذيب والإيمان أيضا. كما أن قدرتها الدؤوب على الجدال التي اكتسبتها من تدريباتها اليومية على الكذب، كانت تحيل المتشككين وضعاف النفوس إلى مؤمنين. ساعدها بالطبع إيحاء صورها على فيس بوك كوجه مقبول سهل الاصطياد والذي ضاعف عدد المعجبين أملا

في مضاجعة سريعة. نصف غوايتها في كونها مجنونة توحي بأنها سهلة، لن توقع الضرر بأحد.

حمقى! اقرأ ما كتبته هنا لتعلم أي ضرر يمكن أن توقعه مجنونة سهلة بنظام العالم:

«بدأ ذلك عام 1887، عندما تم الكشف أنه يمكن تسجيل أفكار ومشاعر الإنسان وإعادة بثها، تماما كأنك تسجل صوتا بشريا وتعيد تشغيله.

عند إعادة بث ما سجل من مشاعر إنسانية يشعر كل الموجودين في إطار الشريط المبث بنفس المشاعر، ويفكرون بنفس الطريقة إذا ما أعيد بث أفكار إنسانية مسجلة.

ظل هذا الكشف سريا، واستفادت به أجهزة المخابرات في العالم، حيث بدأت في تسجيل أفكار البشر عبر الأقمار الصناعية والحاسبات الآلية، وصارت هناك مناطق مخصصة لحفظ تلك المعلومات.

في عام 1957، عندما أطلقت روسيا أول قمر صناعي، أصبح كل البشر في العالم مراقبين باستخدام الأقمار الصناعية، والتي تقوم بالتواصل مع المخ البشري عبر إرسال أفكار له في هيئة موجات تحت الراديو، وأيضا تقوم بتسجيل كل الأفكار التي يصدرها الدماغ، والتي تتكون بدورها من موجات تحت الراديو.

توسعت قدرة المخابرات على التأثير في البشر وصياغة أفكارهم وسلوكهم، لتملك قدرة على التأثير على سكان قرية أو مدينة.

ربما تظن أن الدول الكبرى تتصارع، نعم، في عز حروبها العالمية

والباردة، تم توقيع برتوكول بين الدول الكبرى تحدد مناطق النفوذ وطرق معالجة المعلومات الضخمة التي توافرت لهم، قسموا طرق سرقة اكتشافات وأفكار الشعوب الفقيرة، شعوب البلدان العربية ووسط وجنوب إفريقيا هم الشعوب الأذكى.

عندما تولى جمال عبد الناصر الحكم، اتفقت الدول الكبرى على إغوائه، لاشتراء نظام مراقبة على أفكار المصريين ومواطني المنطقة العربية. عبد الناصر اشترى نظاما مزدوجا يتيح له التجسس على الأفكار والهواجس، وكذلك بث أفكار ومخاوف وهواجس بعينها لمن فكر في ذلك، كان يتحكم حتى في عدد محبيه وعدد المعارضين لحكمه.

*ما المقابل الذي حصلت عليه تلك الدول؟ أفكار المصريين، أذكى شعوب العالم، ونقلها إلى الغرب ليزيد تقدمه ونستمر في الفقر وفقد الجينات المؤهلة لحياة جيدة.»**

هذا ليس حقيقيا، وإنما خدعة بثثناها في الطريق، ولو استثيننا تدخل المخابرات وأن المصريين أذكى شعوب العالم، فقد اقتربت نوعا ما من الحقيقة. عبد الناصر لم يشتر شيئا ولم يبع شيئا، لكنه سلب المصريون حريتهم وراقب أفكارهم ووجهها ورفع طموحهم في آن، ثم انتهى إلى الفشل التام، ماذا يمكن أن ينتج هذا إلا محض مجاذيب على الطريق، يؤمنون بعظمتهم ويلومون القوى العلوية على فشلهم.

هيئة الأمن القومي للكوكب، هي من تسجل الأفكار والمشاعر وتعيد بثها، وتتربح من بيع الأفكار الجيدة إلى الدول التي تستطيع الدفع، ومن السيطرة على المواطنين في الدول.

كان ذلك خطرا .. خطرا جدا.. انتصاب قضيبي القوي.. هبتي المستعادة تشير إلى ذلك.

***

القرار اتخذ بقتلها. وبدون استخدام آليات بطيئة كالتشويش أو الدفع إلى الجنون، بدا لنا أنها مجنونة بالفعل. مجنونة حملت شيئا من المعرفة المحرمة.

أوكلت إلي عملية القتل. لكن تنفيذ ذلك كان خطرا علي. فهو يعني أن أفقد إشارتي الوحيدة الحالية بأن هبتي لا تزال قادرة على العمل. لا يقطع المرء قضيبه.

استخدمت كل ما أملك من نفوذ، رشوة، تملق، لتأجيل حكم الإعدام على يوليا، حتى أستعيد هبتي بالكامل. نجحت بصعوبة في إقناعهم أن قتلها فجأة سيؤكد ما ترددوه، وسيترك ألف كلب وراءها لينبش، ربما نخلق آخرين يرددون ما لا نرغب في انتشاره.

وقعت أوراقا بلا عدد، تؤكد مسؤوليتي التامة عنها، وعن صلاحيتها للتجنيد في مشروع إعادة تأهيل غريبي الأطوار وتحويلهم إلى مشائين.

لم يصدقني أحد في أنها ستكون مكسبا لنا. لكن الرشاوى تنجح داخل الهيئة، والحقيقة تتوه دائما بين مكاتب الموظفين.

***

لم يكن حبا. لكني فقدت اليقين في الطريق الذي علي أن أسلكه منذ عرفت يوليا. كل ما وهبت له حياتي، لا شيء.

ثمة شيء مريح وقاس في حضورها. شيء جاذب إلى الهلاك. بدأ كرغبة في ليلة ممتعة، كالتي حظي بها عبده. ثم تطور إلى استثمار ما ظننته الحياة التي عادت لتدب في أوصالي.

جندتها ببساطة مقابل حماية حياتها.

بطريقة استعراضية أريتها شريطا يلخص حياتها. انهارت. بكت. قالت إن ما عرضته ليس حقيقيا، أما ما تكتبه على حسابها على فيس بوك فلا دخل لها به، إنها رؤى تأتيها، يقتلها الصداع النصفي إن لم تشاركها مع الآخرين على حسابها، أما الجدال الذي تدخله على صفحتها دفاعا عن تلك الرؤى، فلا تقصد منه أكثر من اللعب، هي لا تصدق شيئا ولا تكذب شيئا. أما أكلها للقضبان والأثداء فأنكرتها بنظرة مسكين. هزتني النظرة. كيف يمكن لطفلة كتلك أن تكون قاتلة ومصاصة دماء. شككت في كل شيء إلا وجهها، عاقبت كل المشائين الذين شاركوا في كتابة التقرير.

كنت مستفزا ربما من مضاجعتها لعبده. كيف تمنح فتاة جميلة نفسها لكلب مدرب. واجهتها بإغوائها له، ثم تركه فجأة دون تفسير فدافعت عن نفسها: كنت سكرانة عندما تعرفت عليه، سكرانة ومتروكة من شخص أحبه، تجاذبنا أطراف الحديث، بدا عبده بلا أنياب أو أظفار. شخص يمكن إيذائه كتعويض عن أذى العالم، دون خوف من رد فعله. نمت معه دون أن أدري كيف، لم أكن أقصد. كنت فقط أبحث عن أي مكان يجعلني أهرب من سقف غرفتي. سقف غرفتي لعين، يحدق إلي بعيني قاض لا يغيب حتى

ولو أطفأت النور. يحاسبني على كل شيء، على حياتي الضائعة، كل علاقة فاشلة خضتها، كل اختيار سيئ. نمت معه؟ نعم، لا أتذكر شيئا، صحوت وجدت نفسي في حضني، شتمته، لكني كررت الأمر مرتين، كنت في حاجة إلى من يشعر جسدي أنه مرغوب. لست تلك الجبارة التي تحكي عنها. كان عبده يضغط علي باعتبار ذلك حبا، رغم أن اتفاقي معه كان واضحا: كل ما أحتاجه جسد لا قلب، بلا أي التزام من أي نوع. ليست علاقة، جنس طيب وكفى. بدا لي أنه تفهم هذا، لكنه عاد وهددني ذات مرة بأنه يملك مصيري وسينتقم، ربما هذا هو سبب جلوسي أمامك الآن.

صدقتها دون تفكير. كان قضيبي المنتصب يدير الدفة وحده، لاحظته وابتسمت.

عبده الذي جاء إلى منزلي ذات ليلة وبكى لي من عشقه ليولينا وشعوره بالإهانة من معاملتها كثور مزرعة، كان يصرخ: ثلاث مرات تعني أكثر من الحب، لا يمكنها إيقاف ذلك، هي من دفعتني دفعا للنوم معها، حتى إنها أقنعتني أني من أحتاج إلى ذلك لا هي، جعلتني أتوسل وهي تعلم أنها رغبتها قبل أن تكون رغبتي، ثم صدتني فجأة. أي شر وقعت في غرامه.

على عكسي أحبها عبده فعلا. طلب مني أن أقنعها بالعودة إليه، بالترغيب أو بالترهيب.. وعدته.

لكن ما حدث فعلا، أني أبلغت هيئة الأمن القومي للكوكب بعدم صلاحيته وأن من الأفضل إعدامه. كتبت في تقريري أن مخه

يحمل عصيرا نادرا لكونه مكتئبا مثاليا، عصيرا قد يصلح لعلاج بثور الموتى التي تؤرق المشائين العظام من الجنسين.

***

في لحظة ملل، فتحت حسابا جديدا على لعبة شمس المعارف. لم أعثر على حسابي القديم. لكن خبرتي وقدرتي على اشتراء الأمبروزيا تلك المرة سرعا من بنائي للإمبراطورية في وقت أقل نسبيا. كان في ذلك مخاطرة خضتها بسرية وبحذر حتى لا أشعر المحيطين بي في اللعبة أني أستخدم الأمبروزيا لتجاوزهم. لو علموا لسحقت جزيرتي.

كنت أدفع الملل عن روحي فقط، لم أكن ألعبها بذات الشغف. ما أن اطمأننت للتوسعات ولقوة التحصينات وانضمامي لتحالف قوي يجعل دفاعهم عني أمرا ضروريا، حتى صرت أدخل على اللعبة مرات أقل وعلى فترات متباعدة. طورت بعض أبحاث المستقبل سريعا عن طريق الأمبروزيا، وصلت إلى مدى أبعد من أي مرة. لم أجد شيئا مثيرا بما يكفي. فبدأت بالإيمان بأن أبحاث المستقبل في اللعبة هي مجرد فخ لتوريط اللاعبين في دفع مبالغ طائلة.

لم يعرف أحد بشأن عودتي للعبة. لكن يوليا رأتني ذات مرة فأخبرتها. معاشرتها في تلك اللحظة أقنعتني أنه ليس مهما أبدا إن كانت بهذا الشر أو لا، ما دمت أشعر بالسيطرة عليها وقدرتي على توظيفها لصالحي دائما.

تعلمت كل شيء في مهنتنا بسرعة، وأفادتني. كانت هبتها في

قدرتها على الدعاية لعملي بلمسة منها مهما كان هذا العمل هشا وتافها، إنها تعرف من يستطيع تقبل التفاهة باحترام بالغ.

أدركت بسرعة ما أحب، وتمثلته. عدت لاصطياد غريبي الأطوار بمهارة وقوة أكبر.

أطلقنا على نفسنا داخل الهيئة: عصابة حمادة وتوتو.

قبل أن نتورط في علاقة، كنا نتحادث ليلا عبر الشات، عن مآسيها وضعف شهوتي تجاه العالم، لم يمر أسبوع قبل أن تخبرني بجرأة: أنها تحبني. هل كنت أرغب في المزيد أم أن أتوقف عند هذا الحد، رددت بارتباك: أحب ابني أيضا. كنت أرغب في تذكيرها أني رجل متزوج دون أن أذكر زوجتي التي تركتها تنجر لشجارات أكبر. ربما كنت أختبر ذلك بسفالة: إذا أردنا أن أخوض تلك العلاقة، لن أغير شيئا في حياتي.

وافقت بسهولة أذهلتني. مارسنا جنسنا الرائع، كانت تعد علي كل مرة ألمسها فيها وتحولها إلى ذنب مقيم في رقبتي يدفعني دفعا لاتخاذ قرار في صالحها. الأسوأ أني بدأت في الإيمان أني لن أستطيع النجاح بدون وجودها.

العمل معا، المضاجعة، الأكل معا، رؤية العالم من جديد معا.. كل شيء في البداية كان رائعا ويشير إلى شيء استثنائي يبدأ، ويجبرني على التعامل مع الأمر بجدية. فعلنا أشياء كثيرة لكن ظل اكتشاف جماعة «القزم الأصلع» المتخفية، أبرزها. وبسبب نجاحنا أجبرنا الآخرين على تسميتنا باللقب الذي اخترناه لأنفسنا: عصابة حمادة وتوتو.

***

كان كل شيء آمنا عندما توقف الرجل الأصلع أمام زجاج المحل الكبير ليتفرج على الإعلان الذي يذاع بأحجام مختلفة على شاشات التليفزيونات المعروضة للبيع.

لم يحتج الرجل الأصلع أن يستمع إلى الإعلان. كانت الكلمات المكتوبة وأداء الممثلين كافية لأن يفهم، كما أنه رآه مرات عديدة دون اختيار منه.

لم يكن ضخم الجثة. كان قزما أصلع يتفرج بهدوء على إعلان.

كان كل شيء آمنا عندما أخرج القزم الأصلع عصا، حطم بها زجاج المحل الكبير.

رغم الخضة التي شعر بها العاملون والمارة من صوت تحطم الزجاج، فإن شيئا بديهيا جعلهم على يقين أن التحطم المفاجئ للزجاج على يد قزم أصلع سيكون تحت السيطرة، فهو مجرد قزم أصلع، يبدو غضبه مضحكا، سيمسكونه الآن قبل أن يحطم التليفزيونات كما ينوي، يضربونه وينتهي الأمر، سيدعون الغضب لمدارة حرج تكاثرهم على قزم أصلع، ويكيلون له السباب.

القزم الأصلع فاجأ الجميع. عبر فراغ الزجاج المكسور وبدأ في أكل التليفزيونات من الأصغر إلى الأكبر. جسده كان يتضخم مع كل تليفزيون يأكله حتى تحول القزم الأصلع إلى «قزم أصلع عملاق». لم يلتفت لصيحات الرعب التي حلت محل الاستخفاف. قرر أن يمضي بعيدا ليواصل حياته في هدوء بعد أن تأكد من أن لا أحد يستطيع الاقتراب منه.

انفجـر رأسـه، نبتـت مكانـه شاشـة كـبرى. جـرى فزعـا. حطـم السـيارات في طريقـه. لكـن كلـما ركـض أكـثر كان الفـزع يختفي ويحل محلـه الشـعور بالقـوة الجديـدة التـي يحملهـا.

صـاح ككينـج كونـج ضاربـا يديـه فـوق صـدره. لكنـه عندمـا فعـل تـسرب إليـه الخـوف. كان فارغـا جـدا وهشـا، لم يكـن قويـا إطلاقـا. مـا زال بداخلـه مجـرد قـزم أصلـع يحـاول الحيـاة قبـل أن يستسـلم للغضـب الـذي سـببه لـه الإعـلان.

لم تكـن المـرة الأولى التـي يشـاهده فيهـا. كان الإعـلان يطـارده عـلى كل القنـوات التـي يحبهـا: كايـرو سـينما، تاكـسي السـهرة، بانوراما كوميـدي، التـت، حتـى قنـاة المـدح.

خوفـه انقلـب ذعـرا. واصـل جريـه مبالغـا في إظهـار قـوة جسـده التـي تخفـي شـيئا فارغـا وضعيفـا.

لمـح مـن بعيـد قطـة عالقـة في شـجرة وعائلـة صغـيرة تحـاول إنقاذهـا. فكـر أن مـا حـدث قـد يكـون هبـة كونيـة حلـم بهـا طفـلا: أن يصبـح سـوبر هـيرو. الآن هـو كـ«Hulk» حـرره الغضـب. لم يجعلـه الغضـب قويـا- عـلى العكـس يشـعر بضعفـه في كل لحظـة كيقـين وحيد في اللحظـة الفارقـة. لكنـه أطـول، يمكنـه التقـاط تلـك القطـة ويتحـول إلى بطـل، لـن يشـعر أحـد بضعفـه لـن يـروا فيـه سـوى عمـلاق. قـزم امتلـك الطـول وقـوة الجسـد فجـأة، هـذا مخيـف بمـا يكفـي ليهابـوه. سـينقذ القطـة. قـرر. سـيدرك اللحظـة الفارقـة.

لكـن اللحظـات الفارقـة في حيـوات الكائـن هـي اللحظـات الأكـثر

غموضا. سيبدو أي تبرير لها مجرد ادعاء. لم ينتهز القزم العملاق فرصته نحو مجد البطولة، بل اقتلع الشجرة. وأكل القطة والعائلة الصغيرة. أصوات الذعر وسرينة عربات الشرطة، ألهمته طاقة الرضا. قرفص بجوار الشجرة. لعق الدم. يفكر في اللاشيء. متأملا تلك البيوت الفزعة، طلقات رصاص خائفة وعشوائية من عربات الشرطة. أدرك القزم العملاق أنها لن تجرؤ على الاقتراب أكثر.

الخطوة القادمة. كان عليه أن يفكر في الخطوة القادمة. ذلك أفضل من التفكير في اللاشيء. لكنه لم يستطع أن يهرب من التفكير في اللاشيء. اللاشيء؟ التفكير في اللاشيء ألهمه معرفة قدرة أو قدرتين من قدراته الجديدة، كالقدرة على صنع عاصفة تلتهم كل شيء أو إفراز صور ثلاثية الأبعاد لأي شيء يتخيله. فكر أن «هذا ليس بالأمر السيئ مقارنة بالتفكير في اللاشيء».

سيد الباشا هو أول من ألمح إلى خطر القزم الأصلع وأنه السبب وراء تفشي عبارة «المجد للكسم» قبل أن يظهر وكلف يوليا المجنونة بتعقبه، وتقديم تقريرها. كان يعلم أنه يمنحها شيئا ثمينا، مدها بمعلومات أتى بها مشاؤون آخرون كلفهم سرا بتعقب القزم الأصلع. كان يصنع نورها بين المشائين ويثبت في الوقت نفسه صحة اختياراته.

تجاهلوا التقرير تماما. لم يصدقوا أن مجرد قزم أصلع قد يكون مصدرا لأي خطر كبير كالذي قدمه سيد الباشا ويوليا في التقرير، وأنه من خطط لزرع عبارة ما في الأفق، كلغم يستغل الانتشار الفيروسي

للعبارات الفارغة من المعنى على الشبكات الاجتماعية، ومنحها المعنى.

كان يعيد نشر الإعلانات التي تعاير الصُلع، الضعفاء جنسيا، أصحاب الكروش المترهلة.. الإعلانات التي كانت تهدف في رأيه إلى تثبيت فكرة واحدة عن الجسد، نمط مثالي وحيد، لتسهل السيطرة عليه.

كان ينشر تلك الإعلانات، مرفقة بهاشتاج «المجد_للكسم» دون أن يضيف حرفا أو يشير إلى مغزى العبارة ثم صارت عادة ينهي بها أي إستاتيس يكتبها مشاركة لخبر أو لأغنية أعجبته.

انتشرت عبارة «المجد للكسم» كالنار في الهشيم. رُسمت بالخط الكوفي كشعار وُجد في الشارع أكثر من مرة مرسوما كجرافيتي، صارت لها صفحة تضم مئات الآلاف. لم ينضم إليها القزم الذي خرجت الأمور عن سيطرته شيئا فشيئا. بل صار نسيا منسيا وتاهت ملكيته للعبارة وسط هدير استخدامها العشوائي.

الوحيد الذي أصر على تعقب صاحب العبارة الأصلية كان سيد الباشا. لكن الكبار في هيئة الأمن القومي للكوكب كانوا يرون أن هناك ما هو أكبر من قزم أصلع وراء الأمر. تنظيم سري، «المجد للكسم» هو شعاره. لكن سيد كان يرى أن إيقاف الخطورة تأتي أولا من مطاردة المنبع دون إهمال الوصول للتنظيم.

انتشر بيان مقتضب على فيس بوك أعلن فيه عن وجود التنظيم وأنها جماعة سلمية لا تهدف إلا للسخرية من كل المظاهر، الأيقونات، الكتب والأفلام الناجحة، ملهمي البشرية.

كانت الإستراتيجية التي يتبعها التنظيم هي إفساد المناسبات الرسمية والطقوس، بحركة سريعة، ثم الاختفاء بلمح البصر، عقب طبع العبارة أكثر وأكثر في الأذهان «المجد للكسم».

لم يخل الأمر من ميول انتحارية لبعضهم. كأن يظهروا في أماكن لا سبيل فيها للهروب. لكن لم تسجل حالة اعتراف واحدة تدل على القادة الحقيقيين للتنظيم. الحقيقة التي لا يرغب أحد في تصديقها أنه رغم البيان: لا يوجد تنظيم، بل مجموعات لا مركزية، لا تعرف بعضها البعض. لا تؤمن بشيء ولا بنفسها حتى، ولا يجمعها سوى العبارة التي أطلقها القزم الأصلع: المجد للكسم.

عندما تحول القزم إلى عملاق فشلت في اصطياده قوات الشرطة، الجيش، المواطنون الشرفاء، أجبرت الهيئة على الاعتراف بعبقرية سيد الباشا، واستعادوا تقرير يوليا الكامل عن الأمر.

نجاح تجاوز معرفة وإصرار هيئة الأمن القومي للكوكب على تجاهل خطورة القزم الأصلع. بل قدمت عصابة حمادة وتوتو/ سيد الباشا ويوليا المجنونة، حلا أدى إلى كارثة صارت نقطة سوداء في تاريخ سيد الباشا، لكنه لم يصب يوليا المجنونة بأذى. بل انقلب الأمر وتحدث العاملون في الهيئة أن يوليا وحدها هي من استطاعت التقاط خطر القزم الأصلع. وأن سيد الباشا يستغلها.

كان الحل بسيطا ولا يوحي بمصائر كارثية: بثثنا إعلانا لا تلتقطه إلا شاشة التليفزيون التي حلت محل رأس العملاق. إعلان يمجد في الصلع، قصر القامة، الكرش، كان ذلك يمتص غضب القزم العملاق،

ويمتص قوته معها، عاد مجرد قزم أصلع، الشاشة المثبتة مكان رأسه انفجرت ونبت رأسه مرة أخرى، بثت الشاشة بانفجارها إشارات إلى المحطات الفضائية والراديو في العالم، لوحات الإعلانات في الشوراع، الجبال، السماء، البحور، كلها التقطت عبارة كصرخة وكشعار سيفهمه كل شخص على الكوكب بطريقته، كأن سماعات مركبة تصدح في جنبات الأرض بالعبارة: «المجد للكسم».

كادت الكارثة أن تعصف بسيد الباشا. لكن يوليا قدمت له الحل بقدرتها على إقناع القزم الأصلع بالتحول إلى مشاء ومحو آثار الكارثة التي سببتها موهبة سيد الباشا، مقابل علاج تقزمه وصلعه وتحويله إلى رجل طويل ووسيم له شعر جذاب. سيعرف فيما بعد أنها ضاجعته.

بدأ الانتباه ليوليا بين جنبات الهيئة كموهوبة لا منتحلة.

***

كانت تعلو. كنت أراقب ذلك سعيدا. لم أعد أهتم بانتصاب قضيبي لكشف غريبي الأطوار، بل بالانتصاب من أجل جسدها. صرت عبدا، رقبتي في يدها كقضيبي، لم أكن منزعجا. يوليا الجديدة، صنيعة يدي، تمثالي المبهر، تجسيد حقيقي لهبتي، تحفتي الأصلية. عروس الشمس.. أسميتها عروس الشمس. تلك هي الحكاية مفتتح ومبتدأ وختام يفضي إلى اللاشيء. أنا عباد عروس الشمس، أتحرك كيفما تتحرك. كانت الخدعة أني السيد. لكن الحقيقة أني كنت أتحرك وفق خطتها وإرادتها.

عروس الشمس. شرموطة، يقولون.. نامت مع طوب الأرض، يركبها العائد من الحرب، الذاهب إلى الحرب، المستريح من الحرب.. ستخونك، ستبتلعك، ستحيل حياتك إلى جحيم، شك دائم.. يقولون. الأوغاد، الطيبون.. يقولون كل شيء لأنجو من عروس الشمس.

انفتح كل شيء من جديد. العالم بملذاته: الطعام، الجنس، الضحك، لم يعد لي أصدقاء، لكنها عوضتني بصداقاتها، لم أعد أملك شيئا، لكني كنت أمتلكها، أو هكذا كنت أظن، لم أعد أملك أحلاما، لكنها منحتني أحلامها، سأساعدها في تحقيق حلم قديم لها، في إنهاء فيلم وثائقي عن مجدي وهبة، حلمها الذي تقول إنه ملكها على عكس التقارير الكاذبة بأنه سيناريو كتبه عشيقها السابق سمير حامد. كان ذلك صعبا علي، مسؤلياتي ازدادات، لكنها اعتبرت ذلك هدية واجبة الاستحقاق.

زوجتي عرفت، الخبر لم يعد سرا، سيد الباشا، صار أسير يوليا المجنونة، تحركه كيف شاءت، وصلتني تحذيرات، نصائح، تقارير من مشائين أصدقاء، كنت أرد بكلمة واحدة: أعرف كل شيء، لكنها الآن شيئا آخر.

كنت أعرف أن هناك شيئا خاطئا، لم أكن أبالي، لقد عملت وعملت لأصل لراحة كتلك، عشر سنوات دون إشارة لشيء، دون مديح، دون طائل، الحياة قصيرة، الخلود قد يكون مجرد نكتة غائمة، ما زلت أؤمن بالخلود، لكن معها أنير، اللذة مؤقتة، سنفيق معا، وسننجح، لكن الجنس طيب، الطعام طيب، الحياة

واسعة، مشيت طويلا، دون أن أرى العالم.

اللاشيء.. يعيشون اللاشيء.

ستهدم المستقر، ستبتلع قضيبك، ستخونك، ستجعل من حياتك عبرة، ستنتهي جنرالا في الحسين، قتيل الهوى، مجذوبا مغدورا به، ستشتعل الحرائق من حولك، ستقوم الزلازل، سيغضب الرب، ويقيم القيامة، سينهي السيرك، من أجل حصولك على عروس الشمس.

عروس الشمس؟ لا وجود لعروس الشمس.. يقولون.

***

ضربات تلت ضربات من آن لآخر كالبرق، إنذارا بشيء أكبر سوف يأتي. لم أنتبه. كنت مهتما أكثر بالحياة الجديدة اللاهية الموعودة بأشياء غير العمل. تركت ساعات المشي، خططي للعظمة، إدارتي لقسم المشائين، لأذهب مع يوليا إلى أماكن غريبة لم أرها من قبل، أو رأيتها لكن أراها بعين جديدة، عين شخص يحاول أن يستريح. لم يكن لعيني أن ترى أن يوليا لا تملك شيئا واحدا حقيقيا، وأنها محض فراغ مبني من مني الرجال. تعرفني على ما عرفته من كل رجل، كل قطعة ملابس ترتديها كانت هدية من شخص يفاجئني ذكره، عرفت فيما بعد أن الأماكن التي كنت أظنها من اختيارها، هي الأماكن المفضلة لرجال آخرين. كنت أعيد إحياء ذكراهم.

بدأت الشجارات تدب بيننا عندما طالبتني بوضوح أن أتخلى عن كل شيء: الزوجة، الولد، عملي، عالمي، وأسافر معها لإنهاء فيلم مجدي وهبة. كنت أراوغ، لأحصل على المزيد من كوب

اللذة المليء باللاشيء، حددت لها مواعيد بلا حصر، لأحقق لها رغبتها، أخلفتها جميعا.

قالت: صدقني.. إنهاء الفيلم، سيضمن لك الخلود.

لم أصدقها، كلما كدت أفعل، يضربني الشك في أنها مجرد كذوب، خائنة، تمتص من حولها. ثم يخفت الشك من جديد لأعود وأحدثها بحماس عن إنهاء الفيلم واكتشاف السر الغامض الذي يحمله ممثل ميت. طيلة عام جعلت ذلك مجرد حلم مؤجل، هل احتفظت بجسدها لي وحدي؟

كانت نائمة، تركت حقيبة يدها مفتوحة، الأوراق كانت تناديني، كانت ترغب في أن أراها، فعلت، كانت قصة فيلمها عن مجدي وهبة.

***

وهبة

انتهى من الساندوتش واقفا على ثلاث قضمات. ثم اتجه إلى محل عصير القصب المواجه له. جنيه آخر طار. شرب. تجشأ. فكر إن كان قد بسمل قبل الأكل. ينسى كل مرة. حتى في حياته السابقة كان ينسى.

توجه إلى بنسيون فقير، معزول، لإعداد خطته بشأن فرصته الثانية للحياة. يذكره الأمر بخروج زميله نور الشريف من السجن في فيلم كتيبة الإعدام، مفلسا، محاصرا بوصمة الخيانة، أعجبه الدور، كان يتمنى لو لعبه، نصف فرصة في بطولة. لقد أهدروا ما يملك من وسامة وموهبة في لا شيء: ضابط يكافح المخدرات، أو مجرم يتاجر بها. حتى حياته جعلوها بالفصام نفسه: كان يحب

المخـدرات، وعليـه أن يتحـدث عـن كرههـا وضررهـا في الأحاديـث الصحفيـة والإذاعيـة وعـن خطورتهـا عـلى أخـلاق المجتمـع.

لم يعـرف أحـد أنـه مثـل هاملـت. وأنـه بهـر النقـاد بأدائـه في فيلـم إيطـالي وأجـبر الأجانـب عـلى التحـدث عـن الموهبـة التـي فركتهـا الطاحونـة في مـصر، وأعطـى النقـاد المصريـين طريقـة للتفاخـر ببلـد خلـق ليقتـل التميـز أصـلا.

قالـوا: «هـذا هـو الممثـل المـصري، فقـط لـو أتيحـت لـه الفرصـة سـيجعل مـن حولـه يشـعرون بضآلتهـم».

طحنـوه. فغلـف نفسـه بكبريـاء يصعـق مـن يقـترب منـه، مشـهرا كرامتـه وتعاليـه كمطـواة في كل مناسـبة، انتقامـه الخـاص. حتـى شـلة المخـدرات مـن الممثلـين لم يعفهـم مـن احتقـاره لهـم. كانـوا يعرفـون طيبـة قلبـه المختبئـة كلؤلـؤة لم يكـن يكشـفها إلا عنـد نقطـة النشـوة التـي يصـل إليهـا عـبر المخـدر.

لم يتعـرف عليـه أحـد في البنسـيون. فقـد وسـامته، أصبـح أقـصر، بكـرش ضخـم يتقدمـه. لـه زبيبـة صـلاة ولحيـة ضخمـة يرتـدي جلبابـا سـنيا أصر القائمـون عـلى الأمـر عـلى تنكـره فيهـا: إن حاولـت تغييرهـا، سـتموت ثانيـة.

يعذرهـم وهبـة. ليـس مـن المحبـب أن ينتـشر بـين العامـة أن عـودة المـوتى أمـر ممكـن.

شيء واحـد كان يضايقـه بشـأن هيئتـه الجديـدة. أطرافـه لم تكـن مثبتة بشـكل جيـد. كانـت مفككـة قـد تقـع منـه في أي وقـت. رأسـه وقـع ذات

مرة في مشهد فضيحة. قطة كادت تأكل ذكره عندما سقط أسفل طاولة مقهى. ساعده طفل ذات مرة على تثبيت ساقه اليسرى.

الزمن تغير، قال لنفسه: لا بد أنهم رأوا ما هو أفظع أثناء موتي. في حياتي السابقة كان الناس سيصدمون حقا من مشاهد كتلك. لكن هؤلاء تعاملوا مع الأمر بعادية مزعجة. ثمة شيء مقتول في دنياهم، كيف أؤسس لحياة جديدة في عالم كهذا.

عندما أغلق باب حجرته عليه. قرر أنه لن يستسلم للكسل ولإضاعة المزيد من الوقت. سينتهي من كتابة خطته لحياته الجديدة، لتسليمها إلى القائمين على الأمر. الموعد النهائي الذي حددوه قد اقترب. لم يفكر طيلة ثلاثة شهور من ميلاده الجديد إلا في البحر، كلما جلس وبدأ في كتابة خطته متحاشيا المحظورات الثلاثة: التمثيل، المخدرات، لم يخبروه بالثالثة، تركوها له كفخ.

بدأ في الكتابة، لكن لا شيء سوى البحر، القلم يتحرك من تلقاء نفسه، سود صفحات كثيرة لا تحمل سوى كلمة البحر، ظل هكذا حتى شعر بدوار ثم ميل قاتل إلى النوم، ميل يرعبه، فهو يعني العودة إلى الموت مرة أخرى.

قبل أن يسقط نائما، واتته الفكرة اللامعة: لا فكاك من البحر.

***

قالت يارا لوهبة: متى تتوقع انتهاء العمل؟

نظر لها معاتبا: لو توقفنا عن السؤال، واستمر الإخلاص.

واصلا سكب البحر في فناجين وجرادل بلاستيك. لم يلتفت لعينيها الواقعتين في الغرام.

عندما رأت ذلك المجذوب، يحاول أن يفرغ البحر عبر فنجان صغير، عرفته رغم كل الحجب: الكرش، الزبيبة، الجلباب، اللحية الكثيفة. إنه فتى أحلامها، وهبة الوسيم، الذي تخلل السينما بمشاهد لم يكن بطلها. مات قبل أن يعرف رأسه الشيب وتدرك حيويته الترهل. من امتلك القوة للخروج على القانون، والضعف ليشيد بأهميته.

كانت يارا في إجازة للاستشفاء من إعياء مقيم بسبب حبيبها السابق حامد، الذي عاش حياته يقتات على الحديث عن صناعة فيلم وثائقي عن حياة مجدي وهبة ورغبته في الموت صغيرا ولو بالسرطان. فزرع فيها كابوس رغبتها في القتل دون أن تكشف. وهو ما أقره وهبة: «من يرغب مخلصا في القتل، فعليه أن يكون مدربا على إخفاء الأثر».

رغم أن وهبة كان قليل الكلام فإنه كان أكثر حنوا عليها من حبيبها السابق، وإن لم يكن أقل صرامة. لم يعترض عندما حاولت مساعدته في سكب البحر في فناجين قهوة. بل ربت على كتفها مشجعا عندما اشترت جرادل بلاستيك من التي يلهو بها الأطفال على البحر.

عندما أتى ثلاثة أشخاص عرف وهبة أنهم من القائمين على الأمر،

وأنهم جاؤوا للتأكد بشأن خطة فرصته الثانية للحياة. أخرج لهم رزمة ضخمة من الأوراق. أعد فيها خطة محكمة تحت عنوان: لا فكاك من البحر.

قلبوا الأوراق، نظروا إلى بعضهم مدهوشين، ثم ضحكوا بقوة.

طالبوه أن يأتي معهم بهدوء. أغروه بكفن جميل وجديد بدلا من الذي اهترأ. لكنه أشار إلى يارا المنهمكة في تعبئة الفناجين والجرادل بماء البحر، كان وهبة يعلم القانون: حياته مرهونة بإقناع شخص واحد على الأقل بخطته.

لم يماطلوه. كانت يارا حقا تفعل كل شيء بإخلاص وباختيارها تماما. ليس بإمكانهم سلبها هذا. قال أحدهم بحنق: سنعود.

قرر الثلاثة أن المشوار لا ينبغي أن يذهب هدرا. أخرج أحدهم عوامة ورش زميليه بالماء، قبل أن يبدأ محاولاته المضحكة في العوم.

دفن ثانيهم جسده في الرمل عدا رأسه، ودفن ثالثهم رأسه وترك جسده، ليبدوا كما لما لو أن رأسا يحتضن جسده المفصول عنه. طلبا من يارا أن تلتقط لهما صورة.

تأملا الصورة في ابتهاج قبل أن يسأل أحدهما الآخر: هل تصدق حقا أنه لا فكاك من البحر؟ رد زميله: لا أدري.. لا أفهم تلك العبارة أصلا، لكنها ستجد صداها في الأرض إذا ما تم تكرارها بشكل كاف، وسيصبح لها مؤمنون وتفسيرات عدة.

طالبا زميلهما بالخروج من البحر حتى لا يتأخروا على موعد عودتهم، لكنه تجاهلهما، فقررا أن يحفرا نفقا في الرمال إلى الصين

إزجاء للوقت حتى يخرج.

أما وهبة فأعطى يارا رزمة الأوراق التي أعدها كخطة، قائلا:

«اقرئي ما في هذه الأوراق جيدا، نفذيه بالحرف، عندما يعود هؤلاء إلى القائمين على الأمر، ستأتيهم أوامر بإعادتي مرة أخرى، مهما كانت أسبابي».

فك وهبة قضيبه، وأعطاه لها: عبر هذا سنتصل. كلما أردت عونا ضاجعي نفسك به، وسألهمك الطريق، عدة مرات من استخدامه قد تصل بين روحينا المعلقتين بين السماء والأرض دون الحاجة إلى قضيب، ربما أتمكن من الحلول في جسدك أحيانا».

لكن وهبة لن يعود، لن يحل بروح يارا. لقد جاء ليختفي. تلك الأوراق لن تلعب أي دور، سيغيظه هذا، ربما يقتحم مشهدا أو اثنين ليفسدهما، لا يزال وهبة في قرارة نفسه نجما رغم أنه ميت.

ستفتح يارا الأوراق التي تتوالد ذاتيا بلا نهاية. لم يدون بها سوى عبارة واحدة: لا فكاك من البحر، لا فكاك من البحر، لا فكاك من البحر.. لا فكاك من البحر.

ضحكت يارا بأسى عندما اكتشفت الأمر. لكنها تعرف أنه محض مجنون يعتقد أن غموض كلماته واقتصادها قد يضفي عليها سحرا ويحولها إلى سر يجب أن يكشف، يربط العظمة بالتعقيد. التعقيد في رأيه سيمنحه السلطة التي تسكن من بيده المعرفة. إنها تدرك كنه وهبة جيدا. لقد رأته من قبل متجسدا في حامد الذي لو امتلك زمام الأمر لقبض أرواحا كثيرة ليحل العدل كما يراه ويقيم

الدنيا على مقاس عينيه.

واصلت صب البحر في فناجين. ربت وهبة على كتفيها كأب، لكنها قبلته كامرأة، ندة له. أزعجه الأمر في البداية ثم استسلم. التقط القائمون على الأمر صورة لهما. همس أحدهم في أذن وهبة: «احصلا على غرفة». فكروا في أنهم يملكون القدرة على صناعة غرفة. فعلوا. لكنهم فقدوا هبتهم وتحولوا إلى خنافس دهسها البشر. أما يارا التي تملك قضيب وهبة بالفعل، لم تمنحه إياه بسهولة في الغرفة. أمتعها إذلاله قبل أن تعيده إليه مؤقتا، بعد أن توسل كدجاجة لا كسيد عظيم.

***

انزعج سيد الباشا بعد أن قرأ القصة المنقوصة لفيلمها التسجيلي عن مجدي وهبة. كان على يقين أنها حقيقية وأن يارا هي يوليا.

فتح اللاب توب ليتأكد من أشياء تتضح الآن. صورها على البحر، تصبه في فناجين بجوارها كتف مقصوص، كُمّ أبيض قالت إنه لصديقتها. لكنه قد يكون جلبابا أبيض، جلبابا لرجل بلحية، رجل يدعى مجدي وهبة، لا أحد سواه، الرجل الذي تحمل قضيبه، تخونه معه.

كل ما سمعه وتشكك فيه يتحول إلى حقيقة الآن. كيف لوجه بتلك الوداعة أن يحيله إلى خسارة كل شيء. قامت من النوم، طلبت كوب ماء. فعل. طلبت منه احتضانها من الخلف، احتضنها منحيا الشكوك جانبا. ذلك الملاك الغافي بجواره لا يخطئ، الشيطان الدافئ المتكور في حضنه كجنين له وحده. لعبت بقدميها في قدمه. كانت ترغب في النوم، كان

يرغب في الجنس، لم ينجح في إيقاظها، لكنه لم يتوقف عن تقبيلها طيلة الليل، الفرجة على جسدها، ونفخ بالونات الشك وإطفائها.

في الصباح ستستيقظ الشكوك مجددا قبلهما. هو أقل جرأة من أن يواجهها بشكوكه، سيخبرها أنه موافق على تنفيذ الفيلم، سيساعدها في ذلك. كان يرغب في أن يعرف إلى أي مدى كان ما قرأه حقيقيا.

نظر إلى صنيعته. إنها تنجح. يعرف ذلك. روح متوهجة ورائحة قذرة، رائحة يعرفها. يحبها حقا.

***

«أخسر كل شيء».. أتفهمين.. كل شيء.. عملي.. أصدقائي.. زوجتي وولدي.. أهلي.. سمعتي.. كل هذا لا شيء.. عديني بأن ذلك يستحق.. كل شيء يسهل بناؤه من جديد لو كان ذلك يستحق.

أجابته بحدة: ومن يعوضني عن وضعي كعشيقة.. الشرموطة التي يلهو معها السيد، ثم يعود لبيته في النهاية.. أنت لا ترى نظرات العاملين معنا، الكل يعرف.

«عديني أنه يستحق.. أرغب في رؤية ما وراء الغابة».

«لا وعد .. كل شيء في الحياة قابل للخسارة.. حياتنا مثل أي حياة أخرى»

«ستملين مني»

«لن أفعل.. قد تفعل أنت.. أعدك أنك ستتركني أولا».

«لا خيانات»

«لا خيانات»

«ماضيك يطاردني.. جسدك عرف الكثيرين قبلي»

«الحياة متسعة.. أنت فقط لم تعرف سوى نموذج واحد للعلاقات.. أنثى بكر لم يمسها سوى فحل وحيد.. بينما الفحل يمنح نفسه الحق في أن ينام مع زوجة وعشيقة.. ربما يغير السفر رأيك».

«أنا مرتبك وخائف».

«لا تخف».. لمست جبيني بأصابع لعوب؛ هدأ روعي قليلا.

تقارير أصدقائي وتلامذتي من المشائين تخبرني أنها تعاشر قضيبا لشخص مجهول، صدقتهم وكذبتهم في آن، سببتهم وسعيت إلى أن يأتوني بالمزيد من التقارير عن كل تفصيلة في حياتها.

أنا أيضا أخونها، تلك حقيقة، ما أن تختفي عن ناظري، حتى أرغب في الهرولة إلى زوجتي، أحضنها كأني أتنفس، ما أن أصحو حتى أقرر: لا مزيد من يوليا.. أنا أحب زوجتي وولدي.. لن أتركهما.

لكن فور أن أرى يوليا يتغير كل شيء لا أتذكر سوى اللذة.. الوعد بالجنة المختبئة وراء الغابة.. تلك اليوفوريا لم تكن صادقة.

كل شيء تحول من الخفة إلى الثقل، صرنا نتشاجر يوميا، ننفصل ونعود مرتين في اليوم.. متى تأكل قضيبي؟ كنت على يقين، ورغم هذا كلما جاءتني فرصة للهرب أضعتها سواء بالبكاء بين يديها أو بالاستجابة لبكائها بين يدي، عشت معها كأنها لن تأكل قضيبي كما أخبرتني الشائعات والتقارير، موقنا من ذلك أيضا، كأني كنت أرغب في التخفف من ثقل ما أملك.

أرفض تلميحاتهم في العمل بأني «أعرص» للمجنونة، عندما أرى رغبتهم فيها، أفهم ذلك على أنه مجرد حقد، يرغبون في مكاني، بالسيطرة على

جسد سهل.. لا يعرفون كم يكلف هذا، إنه يكلف حياتك.

«لن تخوض حياتك من جديد إلا بالانسلاخ عن الأولى.. المعرفة تحجب المعرفة.. الحقيقة تحجب الحقيقة.. كل ما تحتاجه هو الإيمان بي كما تؤمن بحياتك القديمة».

الجملة كانت غريبة على يوليا، جملة اصطادتها من منيّ رجل سواي.

***

كنا محاصرين كفأرين وقعا في قفص. الباب يدق. جسدانا لم يكونا قد نالا انتشاء حقيقيا، كنا فقط نحارب بلا حماس لاكتشاف اللذة بعد إرهاق النبذ، الخلافات، الكذب، التردد، الخوف، انفصالنا المتكرر والمستحيل والممكن في آن والذي كنا ننشده دون أن تتخذ خطوات حقيقية.

الزوجة في الخارج، كشرطي البوليس، كالقاضي، كعقاب الرب. تدق الباب بثبات تتغير وتيرته من اليقين أنه سيفتح في النهاية إلى الغضب إلى الوعيد. ثم ترغيب ليس إلا حيلة الأم لإجبار الابن المدخن على الاعتراف. «من أجل ابننا».. «أعلم أنك في الداخل».. «ارحمنا من الفضيحة».

ساعة كاملة مرت كدهر. غفت زوجتي المثابرة على الباب من التعب لدقائق. أدعي الصمت. أهمس ليوليا التي كانت رابطة الجأش أن تطمئن، ورطتها في هذا وسأنقذها منه.

بعد تردد، طلبت من زوجتي الرحيل: نتحدث في البيت. رفضت

بحسم. نظرت إلى يوليا ثم قلت: سأنهي كل شيء الآن. سأفتح الباب وأواجه الموقف. سأخبرها بنيتي في المغادرة. في ترك كل شيء لأجرب من جديد.

كنت أفكر في الفضيحة. فقط لو غادرت لربما منحت فرصة لأصلح كل شيء، أقطع علاقتي بيوليا وأستعيد أيامنا الحلوة، لكنها لم تغادر. لا أملك حلا سوى السير وراء وعد الغابة مع امرأة تخونني مع قضيب ميت، وأن أسلم لها قضيبي لتأكله.

فتحت الباب مرتجفا. يوليا تنفست جيدا ووقفت بثبات.

لولا كانت أعدت العدة لحوار هادئ حاسم، يحفظ لها إثبات الإدانة مع جملة ختامية تجعلنا حقيرين قدر الإمكان وتجعلها مترفعة عن «قذراة الخائن والعاهرة».

سيد الباشا قرر أن ينهي كل شيء بمزيد من الوقاحة، لم يكن يفكر بشيء إلا أن يوقف كل هذا الحصار الآن. أن يمنح يوليا فرصة للفرار. قال مدعيا الثبات: أحبها وسأتزوجها.. لم يكن يعني إطلاقا أنه لا يحب لولا، لكن لم يكن هناك وقت لشرح أشياء معقدة كتلك.

بغضب قالت لولا: ستتزوج شرموطة، نامت مع طوب الأرض.. أنا أعرف عنها كل شيء .. قلت لي إنك ستنهي كل هذا.

يوليا تدخلت: أملك لسانا ويمكنني الرد.

لم تتحمل لولا. كان ذلك أكثر من قدرة أي شخص على التحمل، ضربت يوليا. أبعدتها عنا، لتتمكن يوليا من الهرب. أمسكتها. كان ذلك مؤلما لي، أكتم فمها لأمنعها من الصراخ. ضربتني، جرحت

شفتي وكسرت سنة، كسرت مرآة نيش، وجرته فوقي. تركتها متعبا، آملا أن أكون قد تركت ليوليا الوقت الكافي لتهرب. بهياج جرت وراءها، لو أمسكتها، سأحصل على فضيحة كارثية في الشارع.

خرجت لأنقذ نفسي من كارثة. على أعتاب الباب لم أستطع التقدم أكثر. جلست على السلم. ابتسمت من الخاطر المضحك الذي مر علي: لو لحقتها لولا ستتشاجران حتى الموت، من يبقى على قيد الحياة، يصعد ويأخذني. خاطر ملائم لي كنذل، خائن. لم أستطع البكاء.

لم يصعد أحد. نزل سيد الباشا ليجد لولا تصرخ في الشارع وهي تبحث عن تاكسي. شتمته بأمه عندما حاول أن يتبعها. لا يوجد في جيبه نقود كافية. بطاقة الائتمان في المنزل، لن يستطيع العودة إليه الآن. حاول تلطيف الأمور، كان ذلك تصرفا غبيا. ركبت تاكسي، فكر أن يركب معها عنوة، أو يلحق بها في تاكسي آخر، لكن الغضب الذي رآه في عينيها منعه. أحبها وأريد العودة معها كأن شيئا لم يكن. لكن كل شيء قد كان بالفعل، لا سبيل الآن لمحو ما حدث والعودة إلى الوراء.

بسنة مكسورة، بلا نقود أو أهل أو أصدقاء أو نقود أو ملابس.. فقط يوليا المجنونة هي كل ما يملك الآن. فتح إنترنت الموبايل، أرسل لها: إنتيبي فيين. هاتفته. كانت قد استقلت تاكسي في طريقها للهرب. عادت.

أول ما رأته احتضنته. أخبرته «كل شيء سيكون على ما يرام»

هـل اتضـح الطريـق؟ سـأل نفسـه.. لم تضـع لـولا وقتـا. حكـت لصديقاتها وأصدقائهما المشتركين عن «النذل والشرموطة» بالتفصيل. تبنت صديقات لولا حملة على فيس بوك لنشر الفضيحة. كان ذلك مسليا جدا. ومنح الأزمة بعدا قاتلا وعبثيا. عشاق يوليا المغدورون ظهروا. أقسموا إنها شوت قضبانهم منتصبة وأكلتها. ظهر طوب الأرض، الذاهب إلى الحرب، العائد إلى الحرب، المستريح من الحرب.

تدخلت زوجات خائفات على سلمهن وأشعلن المزيد من النار. التقط عدد من العاملين معي في الهيئة القصة وتبرعوا بحكايات عن نذالتي وأن «وساخاتي» حان وقت نشرها.

كنت أرى ما روي عني ملفقا. أخبرت يوليا: لا أصدق حرفا مما كتب عنك.. كنت أكذب.. لكني كنت أرغب في صفقة تجعلها لا تصدق حرفا بدورها.

زوجتي اختفت تماما بعد أيام. اختفت للحد الذي شككت فيه أني أملك زوجة وولدا أصلا. هل عندي زوجة وولد؟ أم أخوض كل هذا بفتاة مجنونة؟

اشترت لي يوليا ملابس، طعاما، أعطتني نقودا، استعدت للحياة معي. قررت أن نتزوج سريعا، ثم ننفذ خطة الهروب من كل شيء ومن بائعي الفضائح، والتقاعد من العمل كمشائين والسفر لرؤية العالم. لم أكن أملك إلا الموافقة.

***

في اليوم التالي للفضيحة نفذ ما نصحته به يوليا. كان المكتب كله يعرف من فيس بوك من أين أتى مصدر الجرح، وعن السنة المكسورة، ولماذا يرتدي تي شيرتا رخيصا كتب عليه «Get in The Game»، واجههم كلهم بروح مرحة ووقحة كأن شيئا لم يحدث. أثر ذلك كان ناجحا. ما أن تتجاهل الآخرين في حياتك، حتى تفرض إيقاعك. تحملت النكات عن التي شيرت، السنة المكسورة، أثر الجرح. عملت ساعات أكثر. كانت يوليا بجواري، أتجاوز بها خمسة أيام من حملة فيس بوك المسعورة والتي انضم إليها غرباء وعابرون وجدوا فيها فرصة لإثبات تفوقهم الأخلاقي وإطلاق أحكام تعكس عظمتهم.

لم أكن أملك سواها الآن حرفيا. عملي بالساعات جعلني أدرك كم الخراء الذي تسببت فيه بانشغالي مع يوليا. كل شيء كان مبعثرا في القسم الذي أديره. لا شيء يعمل بالشكل الصحيح.

الإدارة عرفت؟ قطعا.. يدركون منذ البداية، فما بالك وأنا نجم الحفلة على فيس بوك.

لم يصلني شيء سلبي منهم لكني كنت أشعر بالخوف. الذهاب وراء غابة يوليا ليس حلمي. حلمي الذي عاد إلي بقوة مع الانهماك في المزيد من العمل هو أن أصبح مشاء عظيما، لو حققت هذا لصمت ضجيج الفضيحة.

لم تعد يوليا ممنوعة، لم تعد الشيء السري الممتع. صرنا نتصرف بجرأة أكبر. مارسنا جنسا أفضل. لم تسمح لقضيبي بالغوص في

مهبلها، منحتني مؤخرتها. ماذا تنتظر؟ أن أتحلل من كل شيء حتى النهاية، «في أول يوم في رحلتنا نحو العالم سأمنحك إياه». نعم ستمنحني ما أخذه كل الرجال عداي. سر هتك آلاف المرات. يا لها من جائزة!

قضينا شهرين كاملين في التخطيط للهرب. حددنا ساعة الصفر. الاستقالة مخيفة. يمكن لأي مشاء قدم الكثير للهيئة أن يستقيل. بل سيحصل على مكافآة سخية أيضا، لكن شريطة أن ينسلخ من كل شيء حرفيا، أن يجري عملية تغيير لوجهه وأن يحمل جسدا آخر وخريطة جينية أخرى من سلالة رجل عادي. هوية جديدة، يسلم موهبته، يفقد كل ما يتعلق بماضيه، باستثناء انتمائه للشجرة الوارفة، لا يجب أن ينسى أن قدره معلق حتى موته برضاهم، كما أن بإمكانهم استدعاؤه للخدمة في أي وقت أو الاستعانة به في المهمات الصغيرة.

أخبرتها أني قدمت الاستقالة هربا من حصارها، إلحاحها على اتخاذ الخطوة، لكني لم أفعل. كنت أحلم يوميا بكوابيس أكل قضيبي، أعيد تركيب وتفسير كل تصرف تصرفته أمامي، إنها تكذب كما تتنفس، تتغذى على اختراع المآسي، تخونني في رمشة عين، لا تتوقف عن الغواية التي لا تملك من سبلها سوى رسالة واحدة: أنا متاحة وبسهولة طرقعتك لإصبعك، لا تخش اختراقي، كسي حزين وجائع.

أقنعتها بعدم تقديم استقالتها كي لا تتعرض لعملية تبديل الوجه

والجسد، وأني نجوت بصعوبة من ذلك عبر الرشاوى بعد استعادتي لبطاقة الائتمان عن طريق البنك. طلبت منها التقديم على إجازة طويلة حتى أتمكن من دفع رشاوى مناسبة تمكنها من الاستقالة الآمنة. وأن تسبقني إلى مدينة جنوا بإيطاليا حيث تبدأ رحلتنا. ذهبت وانتظرتني في الموعد، لكني لم أذهب أبدا.

هكذا تخلصت منها. أبلغتهم في الهيئة أنها فرت. بدأت في استعادة حياتي بقوة. بتركيز أكبر. لم أتأكد إن كان لي زوجة، لذا لم أبحث عنها بجدية. بقليل من التدريب والتركيز عرفت أن انتصاب قضيبي على يوليا فقط، محض وهم، وأنه ينتصب بدونها.

استعدت نفسي، وعملي البراق. حتى جاءتني الدعوة إلى كشري الإمبراطور، لأعمد كمشاء عظيم.

*****

الحفل.. احتمال ثالث

لم أخرج من لوحة محمد علي بعد، لم أحل لغزه. ذلك هاجسي ويقيني. الزمن سائل. الوقائع التي دونتها قد تكون صحيحة، لكنها غير دقيقة. قد تكون دقيقة لكنها غير صحيحة. مبعثرة كبازل.

لا أعرف إن كنت قابلت يوليا قبل حفل التكريم أم بعده. غصت في علاقتي بها قبل اليوم الموعود أم قبل ذلك؟ هل رقيت إلى مشاء عظيم؟ هل سلبتني يوليا كل شيء، أم تعشقني بإخلاص كلب؟ حتى إني لست على يقين إن كان لدي زوجة وولد.

هل يوليا كانت هنا؟ حقيقية وممسوكة؟ ذاكرتي بلا مدد سوى صور. محض صور مختلطة ومرتبكة. شخص آخر يملك رواية سيرتي. يلويها، يحرفها، يجعلها مطية، سيجعلني بطلا إن أراد، ونذلا إن شاء. يلهو بمصيري. لست إلا الولد الذي أحب لعبة شمس المعارف.

نغمة أم كلثوم المجسمة «كان صرحا من خيال فهوى» لا تزال تطن في رأس سيد الباشا، وتذكره أن الحقيقة قد لا تكون في أنه حبس داخل لوحة محمد علي حتى يحل لغزا لا يتذكره، أو أنه عمد على يد ديزني ليصير مشاء عظيما. ما زال هناك شيء ناقص. رأس بلا كافيين هو رأس ملعون. غياب الكافيين يمنعه من التفكير إلا في سؤال واحد: كيف زلت قدمي في كل هذا الخراء؟ السؤال يختفي تلقائيا مع أول رشفة قهوة تتسلل إلى شرايين دماغه. هل

الكافيين يمنعنا من طرح الأسئلة الحقيقية؟

سيغتسل من أثر الاحتلام الخفيف. رأس الدش المخلوع، ذكره بأنه شخص مهمل. الإشارة التي تأتيه في كوابيسه وعقب صحوه من النوم وتناقض إحساسه بالعظمة.

تحت الدش المخلوع والذي حوله كسله إلى ما يشبه الخرطوم، سيكمل مهمة الاحتلام الخفيف بقذف كامل.

تلك العادة لم تعد ممتعة، توقف عنها منذ الزواج، رغم أنها كانت مصدر إلهامه. فبعد كل ذنب، كل عملية نجاح يقبض فيها على غريب أطوار، يواجه مقتا رهيبا لروحه. يقف أمام المرآة عقب القذف عاريا ومبتلا، يقسم إنه يستحق أفضل من هذا، يقسم إنها ستكون الأخيرة. هكذا تربى: اللذة هي مرادف الذنب. ربما فقد حماسه وشغفه منذ توقف عنها. هي المعادل الوحيد للنقطة العميقة داخله والتي تخبره بأنه يحتقر الحياة ويجد معاني كالنجاح والعظمة عبثية تماما.

حان الوقت الآن في وحدته تلك لاستعادة إلهامه. أعد كل شيء من أجل استمناء مريح. لم يستطع أن يستمني على يوليا، يتشاءم حين يفكر بها. استمنى على كل النساء اللاتي مررن في ذاكرته. مدد الصور المرتبكة والخاطفة والعشوائية هو الشيء الوحيد الذي لا ينقطع عن عقله الآن.

عليه أن يشتري دشا جديدا أكبر من هذا ليحظي بمساحة أوسع من الماء الدافق. ثمة أشياء ممتعة في الحياة، يحجبها عنا ثقل المؤخرات.

فكر أنه ليس مهملا أبدا في عمله. أما حياته الخاصة فهي محض خراء مطلق، وخرابة متحركة. هل كان ديزني ومحمد علي مهملين؟ تساءل. هل كانا يستمنيان في ليالي الوحدة؟ ربما لم يكونا مشغولين بالنساء قدر اهتمامهما بإنقاذ العالم. هو أيضا ليس مهتما بالنساء إلى هذا الحد. يوليا كانت مجرد حجر في بحيرة راكدة. يجلد روحه، يحقرها إلى القاع كي يستعيد الصعود. لو فقط تأكد أن يوليا لم تخنه. هل لا يزال راغبا فيها، أم يتمنى فقط أن يثبت لنفسه أنه لم يكن مغفلا إلى هذا الحد؟

***

مع كل فركة في قضيبه، كان يتذكر شيئا عن الاحتمال الثالث لما قد يكون حقيقة ما حدث في القاعة. شخر. ثمة رؤية ثالثة الآن، احتمال جديد، يستبعد كونه عمد كمشاء أو حبس داخل لوحة محمد علي. بل رأى نفسه عاريا، مقيدا إلى عمود، مرتبكا كفأر، وكل من في قاعة المؤتمرات ينظر إليه.

لم يحرجه تدلي قضيبه وعري مؤخرته، لكن أحرجه تدلي كرشه أمام الجماهير. لم يرحمه ديزني وهو يشير إليه بعنف، مربتا عليه باحتقار كما يفعل أصدقاؤه من أصحاب الكروش ليداروا القذى في أعينهم.

ضحك الحضور تحول إلى كرابيج تجلد سيد الباشا. قال ديزني مخاطبا الجماهير: لقد حذرناه كثيرا. أرسلنا له الرسالة تلو الرسالة وصديقا وراء صديق ليربت على كرشه مذكرا إياه. كانوا من

أصحاب الكروش ليرى نفسه في مرآتهم. كيف لمشاء أن يمتلك كرشا كهذا. لم نطلب أشياء معقدة كالطول أو الوسامة أو حتى بياض البشرة. فقط ألا يجعل من بطنه نشانا للإهانة.

حاول سيد أن يبكي، لم يستطع. واصل ديزني:

لم يكن ذلك خطؤه الوحيد. نحن لا نظلم أحدا. لكنه عرض كل شيء للكشف بعلاقته بفتاة لم تحبه، يوليا المجنونة. زور تقريرا عنها يثبت أنها تصلح للعمل. زرع شيئا غامضا بيننا. فتح الباب على مصراعيه لغريبي أطوار ليصيروا جزءا منا. خبأ القزم الأصلع. أقنعنا أنه يصلح أيضا كمشاء بينما القزم يواصل عمله السري في تنظيم «المجد للكسم».

حاول سيد الباشا أن يدافع عن نفسه لكن لم تخرج من فمه سوى كلمات مبهمة وغامضة لم يلتفت لها أحد.

واصل ديزني: رسب في الاختبار الروتيني الأخير الذي يسبق ترقيته من مشاء إلى مشاء عظيم، فقد فشل قبل ساعة من الآن في تحديد هوية المجذوب العفن وظنه واحدا منا. سمح لموهبته بالترهل ولم يعد يجيد استخدامها.

لقد أفلت فرصا عديدة. لكن تاريخه وسيرته الذاتية وحكمتي، ستعطيه فرصة أخيرة. سنلجأ إلى لجنة الحظ والحكمة.

***

لم يكن سيد الباشا يعرف تحديدا ما هي لجنة الحظ والحكمة، لكنه سمع أن مجرد تعرض المشاء لها حتى وإن نجا، يظلله بوصمة عار، يحتاج المشاء معها إلى أفعال خارقة لتجاوزها.

أتت اللجنة. كانت مكونة من الأقزام السبعة في قصة سنوايت. لم يعرف كيف لأقزام لا يعترف بهم في هيئة الأمن القومي للكوكب بل ويطاردون أحيانا لكونهم غريبي الهيئة أن يكونوا هم الخط النهائي لمصيره.

فكوا أسره عاريا. أجلسوه على طاولة يجلس عليها الأقزام. فردوا لعبة تشبه بنك الحظ. وضعوا في منتصفها بلّورة مليئة بالماء. أمسكوا يده ووضعوها فوق البلّورة. ظهرت فيها صورة يوليا. كانت تسبح في هدوء. تبادلوا الابتسامات.

وضعوا نردا في يدي، طلبوا مني أن ألقيه، ألقيته، جاء الرقم 4.

تحركت عربة على خانات اللعبة التي تشبه بنك الحظ، لكنها كانت مقسمة إلى ثلاث خانات فقط تتعاقب وتتكرر: حظ - حكمة -محكمة.

توقفت العربة عند كلمة حظ. اختفت صورة يوليا من البلّورة وحلت محلها جملة: اقلب الطاولة.

قلب الطاولة التي طاوعت يده، بل وانقلبت أجساد الجالسين على مقاعدها والقاعة. لم يتغير شيء، فقط كل شيء صار بالمقلوب.

سأله دوك: ما الذي تراه الآن؟ قال سيد الباشا: أننا كنا طيلة الوقت نجلس بالمقلوب دون أن ندري. طلب منه أن ينظر إلى البلّورة مجددا.

كانت صورة البلّورة هي صورة سيد الباشا، عاريا ومذلولا وجالسا بالمقلوب. لكنها اختفت لتعرض في لقطات خاطفة أهم مشاهد حياته، ثم توقفت قبل عشر سنوات مضت عند ضحيته الأولى: فاروق علي المريض بداء الكلام. لم يكن قد نبت لسيد الباشا كرش وقتها ولم يكن قد انفتح له بعد الطريق إلى العظمة.

«كانت بداية جيدة» قال سيد الباشا لنفسه بفخر. قال دوك: ذكر فاروق في قصته شيئا عن كتاب ضخم يبتلع الكتب التي تخبره بسيرة الكون، لم تذكر ذلك في تقريرك. ثم قفز دوك من على الطاولة ممسكا برقبة سيد الباشا: لقد ذكر لك فاروق شيئا عن اسم الكتاب ومكانه. تحول دوك إلى قط لوهلة لم تتجاوز الثانية، ثم عاد إلى هيئته.

«لا أعرف.. لا أعرف.. كلما حاولت تذكر هذا يختفي كل شيء من ذاكرتي، يطاردني صداع رهيب. لم أدون الاسم وقتها، كنت قليل الخبرة، ولم أظنها تفصيلة مهمة، كنت على يقين أن ما يقوله فاروق محض جنون وأنه لم يحدث فعلا. كلام فاشلين. كنت مهتما بخطيئته الأصلية، محاولة الغش وإصابة الخلود دون استحقاقه بكتابة نعيه على الحوائط. كانت أول عملية لي، من حقي الخطأ».

عاد دوك إلى مقعده بهدوء بالغ ثم سأل: ألم يذكر جملة كـ«لا فكاك من البحر»؟

فاجأته الجملة التي لم يسمع بها إلا في الأوراق التي أخذتها يوليا المجنونة من مجدي وهبة. لقد خانتني. اعترف سيد الباشا في

فورة غضبه بقصة يوليا ووهبة.

لكنه فوجئ بيوليا وراء ظهره، كانت هي من رقصت مع ديزني وهي ترتدي ثياب «Belle» في الجميلة والوحش. كانت تلعب في قضيب ديزني الذي ابتسم ابتسامة بلهاء. عرف أن لا فائدة. «الشرموطة معهم». قال دوك: يوليا أخبرتنا بكل شيء، الأوراق لا وجود لها، وهبة محض افتراض وفيلم تحاول إنتاجه، سنعمل على أن نمنح المخلصة شيئا كهذا.

دوك بدا ممتعضا وهو يقول تلك الكلمات. عيناه كانتا تنكران إيمانه بإخلاص يوليا التي لم تتورع عن الكيد لسيد الباشا بابتسامات تعلن سيطرتها على كل شيء. بدا كمن يوجه كلماته نفاقا لديزني.

«يا بنت الوسخة».. صرخت.. فتلقيت ضربة كرباج على جسدي العاري، ابتسامة يوليا ازدادت عهرا ومسكنة.

***

أملي الوحيد في النرد. أشار لي دوك أن ألقيه، جاء الرقم 7، صرخت لا وجود للرقم 7 في النرد، تلك مؤامرة. سارت العربة متجاهلة صراخي نحو خانة المحكمة.

ذلك سيكون نهائيا، حاسما، وبلا خانة حكمة. ارتجت القاعة. ديزني تبدل إلى هيئة نظيم شعراوي القاضي في «شاهد ماشافش حاجة». التفت سلسلة تنتهي بكرة حديد ثقيلة حول قدم سيد الباشا اليمنى في انتظار الحكم.

جاء كارت المحكمة كالآتي: «الأسباب التي تدينه لا تكفي لعقاب قاصم. لكن ثمة شيئا تحول في قلبه منذ عرف يوليا المجنونة. شيئا سيحيله إلى غراب يحجل ولا يجيد المشي. لن نحتاج إلى مشاء يحجل. لذا ستنزع الهبة منه وتعطى إلى مشاء آخر، عقابه كان اختياره. طريق بدأه بإرادته الحرة، ستمنح هبته إلى يوليا».

تمنيت الموت، لكن بدا ذلك عصيا. يوليا فكت أصفادي بنفسها، ثم منحت جسدي إلى جمهور صعد بي إلى منصة المسرح. طرحوني أرضا. تحلقوا حولي كضباع مسعورة. بعبصوا مؤخرتي. صبوا سوائل في أذني ومنخاري وفمي.

لم يسلم ثقب فيه. كان شيء ما يغادره، شيء يشبه الرحيق. فيما يغيب عن الوعي تدريجيا. لمحهم يبصقون الرحيق في دورق زجاجي ضخم، أشعلوا تحته نارا هائلة. تكثف الرحيق ثم تجمد على هيئة قضيب. كان ذلك قضيبي، هبتي في كشف غريبي الأطوار. رغم أن قضيبي الأصلي لم يبرح مكانه.

انفضوا. حرص ديزني أن أرى عقابي. يوليا تتقدم عارية. تأكل قضيبي/هبتي. تماما كما قيل عنها ولم أصدق. ببطء ولذة. وجهها تورد بهبة الرب. مهبلها أنار. عمدها ديزني بالدم «م. ع»، بنت الكلب صارت مشاءة عظيمة.

***

تذكرت وأنا أفرك قضيبي في الحمام، ذكرى إهانتي كاملة. هذا قضيب بلا هبة، ينتصب على النساء ولا ينتصب من أجل غريبي الأطوار، لا يقودني للعظمة.

الذكرى التي تعود الآن مع الاستمناء. امتصاصي من قبل الضباع الهائجة، يوليا وهي تعمد، تلك الصور الكارثية جعلتني أكثر هياجا، دفعتني إلى الذروة، حررتني. قذف يعقبه خواء ولعنة وذنب ينهش الروح.

هذا هو لغزي داخل لوحة محمد علي، لا خروج إلا بفك اللغز.

*****

شمس المعارف

مـا أن عرفـت أن لغـزي داخـل اللوحـة، وأن الاحتـمالات الثلاثـة قـد تكـون حدثـت بالفعـل حتـى تـلاشى الحـمام. وجـدت نفـسي في صحـراء، عاريـا، قضيبـي ينتصـب حتـى السـماء ثـم يعـود. سـمعت الصـوت مدويـا «قضيـب بـلا هبـة».

لا أحـد. لا شيء.. صحـراء بـلا شـمس تلسـع، الرمـال بدرجـة حـرارة تشـبه بـلاط الحـمام.

لا هـدف للمـشي. لم أتلـق أمـرا كـما اعتـدت. لـذا قرفصـت في وضـع المتغـوط. سـاعة أو اثنتـين قبـل أن أتحـرك. تحركـت لا لكـوني أدركـت أن حيـاتي تغـيرت، لكـن لأني جائـع.

المزيـد مـن المـشي، المزيـد مـن الـلاشيء، حتـى ظهـرت. يوليـا في قفـص وديـزني عـلى هيئـة وحـش. يوليـا تنظـر لي بعينـين مسـكينتين، مسـتنجدة، سـأنقذها إذن؟ تلـك هـي المهمـة الجديـدة؟ مسـتحيل أن تكـذب هاتـان العينـان البريئتـان والمرهقتـان. اقتربـت عاريـا إلا مـن جوعـي.

سـأنقذها. ابتعـد الـسراب. لكـن الصـورة تبدلـت. يوليـا بـزي بـورن، تـضرب ديـزني بالكربـاج. لسـانها الـشره ينادينـي. نظراتهـا تحرقنـي. حولهـا قضبـان ذكـور تتلـوى كحيـات وأثـداء إنـاث بأسـنان شرسـة. عـدد مـن ضاجعتهـم. قضيبـي بينهـم، هبتـي. أعرفـه كـما أعـرف نفسي.

جريـت جائعـا نحـو قضيبـي. الـسراب يبتعـد. ثـم توقـف. كـدت أقـترب، ككلـب يلهـث. كلـما تبدلـت صـورة يوليـا، تبـدل شـعوري

نحوهـا. محبة/كراهيـة.. محبـة /كراهيـة.. محبة/كراهيـة.. حتـى اختفـى الحـب والكـره.. لا شيء، فقـط مزيـد مـن الـلاشيء.

انهـرت، فانهـارت الصحـراء. تشـققت كبيضـة. لم تكـن سـوى غـلاف يخفـي بيتـا مـن قـش في جزيـرة مفتوحـة عـلى مـاء يطـل عـلى جـزر أخـرى. أعرفهـا كـما أعـرف نفـسي وأعـرف قضيبـي. أنـا داخـل اللعبـة، لعبـة شـمس المعـارف. مصـيري الأول الـذي هربـت منـه باختيـاري العمـل كمشـاء.

كنـت في المسـتوى صفـر. بـلا ذهـب أو مـوارد لبنـاء ثكنـة الجيـش أو تطويـر المناجـم. مسـتعمرتي الحزينـة. أعـرف كل شيء.. سـأصير قائـدا حربيـا مـن جديـد. تلـك أرضي وهبتـي. كنـت سـعيدا رغـم كل شيء، حتـى إني لدقائـق نسـيت أمـر قضيبـي وفجيعتـي في يوليـا.

***

لـولا العشـب لمـت جوعـا. تلـك اللعبـة اللعينـة لم تعـد كـما كانـت. لا أسـتطيع تنميـة أي مـورد أو الارتقـاء بالبيـت القـش إلى قـصر أو بنـاء ميناء أو ثكنـة جيـش أو قلعـة قراصنـة.

أفكـر في يوليـا كفجيعـة حينـا، كغـراب بـين حلـق فوقـي فسـلبني كل شيء. وأفكـر فيهـا كحبيبـة سـابقة حينـا. لكـن تقرصنـي فجيعتـي في قدرتهـا عـلى الخيانـة ببسـاطة.

أحـاول تشـغيل اللعبـة عـبر الإسـكرين التـي تظهـر في السـماء وعليهـا خانـات اللعبـة: اسـمي، خريطـة الجـزر، مـا أحملـه مـن مـوارد، تطويـر الأرض، أسـتطيع تحريكهـا عـن طريـق اللمـس، لكـن لا شيء.

الصدفة وحدها أهدتني مفتاحا عندما حفرت حفرة للتغوط. لم ألحظ شيئا إلا عندما انتهيت، وأنا أردم الحفرة لمحت لوحة. أخرجتها بعد أن مسحت خرائي من فوقها بورق الشجر.

كانت لوحة محمد علي. كان يرقص على موسيقى مهرجانات تعزفها اللوحة: لو زعلان أريحك.. زهقان أمرجحك. قذفت اللوحة بعيدا خوفا من أن يخطفني مرة أخرى داخلها وارتددت للخلف.

محمد علي خرج من اللوحة بنفسه وهو يمسك بلغزه الخاص: قطعة الثلج التي لا تذوب. نظر لي بثبات: لمَ الخوف؟ لن تدخل في اللوحة.. أنت بداخلها بالفعل.

سألته يائسا: أرغب في الخروج بأي طريقة.. قال محمد علي: ليس قبل حل اللغز.. الوصول إلى نهاية لعبة شمس المعارف.. أنا دليلك.. مفتاح اللعبة.. عليك أن تحطمني في النهاية.. لكن ليس قبل النهاية.

لم يرد سيد الباشا. كان عليه أن يتبع محمد علي. لا أمل لديه سواه.. هل يفعل ما يرغب فيه الآن: أن يمنحه أمرا يتبعه، هدفا للمشي؟

لن يخيب محمد علي أمله. لكنه سيمنحه هدفا محيرا: اتبع غرائزك. لو فعلت ستتمكن من بناء أول مستوى في المنجم. أنهى عبارته واختفى. ثم عاد لينصحني: احصل على بعض الملابس أولا.. ثم اختفى مرة أخرى.

***

نسج سيد الباشا لنفسه ملابس من العشب وورق الشجر. لم يكن يجيد ذلك في الحقيقة. لكن في اللعبة استطاع أن ينسج ملابس بسهولة. حصل بناء على ذلك على 20 خشبة، 20 قطعة أفيون -في النسخة القديمة من اللعبة كان يحصل بدلا منه على العنب لصنع الخمر للعمال ليزيد شعبيته- و20 قطعة نحاس. والأهم ثلاثة عمال عين منهم حطابا والثاني مزارع أفيون والثالث عاملا بمنجم النحاس.

ظهرت لي أيقونة كتب عليها: المقهى. ضغطت عليها.

وجدت نفسي في مقهى سعد الحسيني وقططه السبع لا تزال تلعب. عرفتهم تلك المرة. أرواح مشائين عظام. هم أيضا الأقزام السبعة الذين أضاعوا فرصتي الأخيرة في لجنة الحظ والحكمة. الفشلة والعاطلون ما زالوا يتنسمون أفيون حجر الصفاء.

أشار لي سعد الحسيني. تلك القهوة تملك بابا سحريا، دلني عليه، أغلق علينا فور دخولي. القطط السبع كن بالداخل، رغم أني لم أرها تدخل.

سألني: أحضرت الأفيون؟

أجبت باعتبار الأمر بديهيا: معي 20 قطعة، أول قطفة.

قال: انقلها لي.

تذكرت أن علي بناء متجر أولا على جزيرتي في شمس المعارف. ضغطت على الأيقونات. بناء المتجر يحتاج إلى 30 دقيقة في زمن اللعبة.

أحضر لي كرسيا وشايا وشيشة مغمسة بالأفيون. شربت لكن دون أن أمنح الرؤية تلك المرة. القطط السبع تركن أجسادهن. وتحلقن حولي بأرواحهن كأسلاف للمشائين العظام.

بدوا ناقمين من شيء ما. أزالوا ملابسي البسيطة. تفحصوا جسدي بعناية.

«كنا نعرف من البداية».. تهامسوا.. «المختار».

سألتهم: كفيلم ماتريكس؟

ضحكوا: المنتظر.. ابن الوسخة المنتظر.

أخرجوا كتابا قرأوا منه تلك الفقرة معا:

«ذات يوم سنصل لتعريف نهائي وشامل لابن الوسخة. هذا التعريف سيساعد ابن الوسخة على النهوض من مخبئه وتعريف نفسه بأريحية.

ابن الوسخة المنتظر. مخلصنا من الكمال الذي بحثت عنه الجماهير في هيستريا تبادل التهم. سيرتاح الجميع لوجود هذا الرجل الذي قرر أن يرفع الصليب عن الكل. سيقابل باحترام من جميع الدوائر، لإزاحة هم كونها في حيز الاتهام بأنها بنت وسخة. لن نصبر قليلا قبل أن نتدافع لنيل اللقب من الرجل والتشكيك في كونه ابن الوسخة الوحيد. سنقاتل كي نصير نحن ولاد الوسخة. سيتبناه الجميع وسنجد اسمه ووجهه في إعلانات المياه الغازية وشركات المحمول.

ستصبح الشرعية الوحيدة المتاحة هي شرعية ابن الوسخة.

سيختفي ابن الوسخة ذات يوم ضحية دفاعه عن نفسه كابن وسخة وحيد وتقاتل الآخرون على لقبه. سيعبده البعض وينكر البعض وجوده من الأصل، وستنشأ متاهات أخرى تدور حول ما إذا كان قد قتل أو رفع، ليعود في النهاية للانتقام من ادعاء الجميع أنهم أولاد وسخة».

دخل الحسيني علينا فوجد قططه تردد في مواء جماعي له صوت مقدس: ابن الوسخة.

ابتسم الحسيني، تجاهل الأمر: بناء المتجر انتهى.. سلمني الأفيون واحصل مقابله على 1500 حبة قمح.

عقدت الصفقة في دقائق، بالضغط على أيقونة نقل 20 قطعة أفيون إلى متجر سعد الحسيني. كان ذلك المقهى هو جزيرته في اللعبة.

«ابن الوسخة المنتظر لا تسرق هبته»، قال الحسيني باستخفاف.. رددت بثقة زائفة: سأستعيدها.

لم أكن واثقا من شيء. لكن اللعبة، أي لعبة، تحتاج إلى الثقة. الحسيني حليف مؤقت وعدو منتظر. تلك اللعبة لا تنتهي إلا بتفجير اللاعبين لبعضهم البعض، وبقاء لاعب وحيد حيا. تلك اللعبة لا تنتهي.

***

لم أملك قصرا بعد. طورت كوخ القش إلى بيت خشبي مفتوح. أرى ملكي الآن ضعيفا وهشا ومفتوحا على احتمالات عديدة، معرضا للهزيمة في أي وقت. كان الملل هو سيد كل شيء. تعلمت العزف على جيتار خشبي فقير، ارتديت زي راعي بقر، ضبطت المشهد كما أراه في الأفلام. راعي بقر بقبعة يشرب البيرة بلا اكتراث.

كنت أحاول كسر ملل بطء تطور لعبة شمس المعارف. لا أملك خوض حروب. لا أملك سوى التفكير.

كنت مشوشا بشأن ما علمته عن كوني مختارا. تشابك الأهداف مزعج. لست مهتما الآن أن أكون مختارا. إنقاذ العالم ليس من أولوياتي الآن. لا أنكر أني وقعت قليلا تحت إغواء سحر أن أصبح «ابن الوسخة المنتظر». وأني فكرت في أن الأمر قد يكون تعويضا فريدا عن لقب المشاء الأعظم. لكني توصلت بعد زجاجة البيرة الخامسة إلى أن من الأفضل أن أستجمع طاقتي للحصول على هبتي. سيفتح ذلك الباب لاستعادة كل شيء في المقابل. وظيفتي وطموحي كمشاء أعظم. الانتقام من يوليا. ربما أصبح في قوة ديزني وأستولي على مكانه ومكانته.

ضحكت عندما وصلت إلى تلك النقطة. لا أملك أي شيء. سوى ثلاثة عمال خرس. لا يتحدثون، لا يأكلون، لا ينامون، لا ينظرون إلي أبدا. يتجاهلونني دوما. لا يعرفون سوى العمل. لا يتوقفون عنه إلا لاستنشاق الأفيون الذي يعينهم على مزيد من العمل. يتلقون الأوامر عبر ضغطي على أيقونات.

مر أحدهم أمامي، كان ينقل خشبا. قذفته بحجر كان في مرمى يدي. أصبته لكنه لم يلتفت. قمت من كرسي راعي البقر ومشيت وراءه. ضربته على مؤخرته، على قفاه، ركبت له ذيلا، بعبصته، سببته بأمه. لا شيء. أي مُلك هذا؟ ما يحدث هو تعريف مثالي للاغتراب والوحدة.

يمكن أن أعفيهم من العمل الشاق لو توقفوا وتحدثوا معي. ربما أرقيهم لكونهم أول ثلاثة عمال في الجزيرة وأجعلهم مستشارين. ليسوا آلات. يمكنك التأكد من ذلك بمجرد بعبصة أحدهم. مؤخرة طرية وحية تناسب إنسانا لا آلة. عمال مثاليون لا يتوقفون عن العمل ولا يضربون عنه ولا يمتلكون أي نوايا لتحطيم الآلات.

طورت مزرعة الأفيون وأكاديمية أبحاث المستقبل إلى الدرجة الثانية عبر بيع القمح الذي حصلت عليه من مقايضته بالأفيون. تولد 10 عمال آخرين. حصلت على الذهب أيضا. شمس المعارف هي مشوار طويل يحتاج إلى عمر مواز، لكن لاعبيها لا يملكون شيئا أكثر من الوقت. تدريبات الصبر على الملل أحد أسرار اللعبة.

فتشت بين العمال العشرة عن شخص يمكنه التحدث معي ولو كخطأ في اللعبة. شخص يمكنه التفاعل. عرفت أن ذلك يحتاج إلى الأمبرزويا، الكثير منها. يعرض القائمون على اللعبة، في مراحل لاحقة وعند توافر الأمبروزيا المناسبة، مهرجا يتحدث ويسخر ويضحكني. رغم أني في الأصل أحتاج إلى من يستمع إلي وأضحكه. لكن ذلك كان أفضل المتاح. لاحقا سأعتاد الأمر وستخفت تلك الرغبة إلى حد التلاشي.

البيرة تمنحني رأسا يتخلص من كل ثقل. تذكرت ببساطة وبدون صداع يركب الرأس أن اسم الكتاب الذي تبحث عنه هيئة الأمن القومي للكوكب ويستطيع فاروق على أول ضحاياي أن يصل إليه، هو نفس اسم اللعبة: شمس المعارف. خمنت أن نهاية اللعبة وحل اللغز قد يكون بالوصول إلى الكتاب وأن الطريق قد يكون عبر تطوير أبحاث المستقبل. بدا ذلك منطقيا، فلهذا السبب كان يتم التشكيك من قبل اللاعبين في جدوى تطوير أبحاث المستقبل. حتى لا يصل إليها سوى المنتظر والمختار. صراع كل هؤلاء اللاعبين يجري لهدف ما.

جلست أنتظر بصبر، موعد حصاد مزرعة الأفيون لبيعه لمقهى سعد الحسيني وتطوير اللعبة أكثر. كلما طورت شيئا حصلت على عمال أكثر. مع زيادة عدد العاملين على الجزيرة تنبهت إلى أن ملامحهم تشبه ملامح ضحاياي من غريبي الأطوار الذين أوقعت بهم. ما يعني أني أستطيع استنساخ فاروق علي الذي يعرف الطريق إلى الكتاب. حتى لو لم يتفاعل معي قد يكون الوصول إليه طريقة للحصول على الكتاب. ربما لا يتفاعل معي عمالي حتى أستطيع تمييز فاروق علي بسهولة، قد يكون هو العامل الوحيد الذي يستنسخ للتفاعل معي وإرشادي. لو صحت حساباتي، لأنهيت اللعبة مبكرا. على هذه اللعبة ما يستحق الحياة. ضحكت من النشوة ثم قررت أن أجلس عاريا، لا أحد منهم يهتم أو ينظر إلي حتى.

حان الوقت لبناء ميناء أيضا وثكنة لإنتاج جنود. زادت نشوتي من قدرتي على التفكير بمنطقية وخيال. تلك اللعبة لعبتي حتى لو خضتها دون موهبتي. ربما كانت تلك الهبة هي التي تعوقني عن التفكير بمنطقية وخيال في آن واحد، وتسلبني أحدهما.

أعلم ما سيعقب نشوتي: خيبة أمل.

الحقيقة أني محاصر. وحيد بعمال خرس. فقدت كل شيء. ملعون محطم السمعة. أمله في الحياة معقود بمعجزة. النجاة والعودة تحتاج إلى حرب كبرى قد أقطع إربا دونها.

***

طورت ملابسي من ورق الشجر إلى جلباب من قماش وخيط، فأتاح لي ذلك تطوير خريطة عالم اللعبة. بإمكاني الآن أن أبحث عما أريد. وفقا لحساباتي فإذا كان مقهى سعد الحسيني مجرد جزيرة في اللعبة، فكل ما مر على عالمي لديه جزيرة مماثلة. وحده فاروق علي لم أجد له جزيرة.

بحثت عن يوليا في البداية. كانت في تحالف ديزني القوي وعلى جزيرته البعيدة. كي أصل إلى هناك أحتاج إلى أسطول ضخم وسريع وإلى احتلال جزر أقرب وأن تساندني تحالفات قوية.

بعقلانية تجاهلت رغبتي في الوصول إلى يوليا للانتقام حتى أملك القدرة. القاعدة تقول: من أجل إثراء مواردك في اللعبة بسرعة أكبر، ابحث عن خصم ضعيف أو لاعبين ملوا اللعبة وتركوا جزرهم بلا قيادة لتعمل بآلية.

وجدت جزيرة مجدي وهبة. بخبرتي السابقة في اللعبة، تلك جزيرة بلا قائد، مواردها ستنهب بسهولة. لم أكن أملك سوى خمسة جنود. كان علي وفقا لقواعد اللعبة أن أستكشف وضع الجزيرة أولا عبر جاسوس، لكن ذلك لم يكن متاحا، ذلك يحتاج إلى تطوير في أبحاث المستقبل لم أصل إليه بعد. سألعب بنفسي دور الجاسوس.

أبحرت بمركب خشبي بسيط، لم أطور الميناء بعد. ظهر محمد علي قبل أن أبحر قائلا: قلت لك اتبع غرائزك.. الحسابات لن تصل بمركبك كما تظن.

أشرت له بإصبع الوسطى ومضيت. إن كان باشا سابقا أو مشاء أعظم، فأنا أدرى بشؤون اللعبة. غرائزي حركتني من قبل، فانتهى بي المطاف إلى محاولة الاستمتاع بجحيم الفضيحة ومخدوع بقضيب الخيانة.

وصلت إلى جزيرة مجدي وهبة، لم أتوقع أن يظهر. لا أعتقد أن القائمين على الأمر تركوه لينجو بحياته الثانية. توقعت جزيرة بلا حراس، سهلة الاحتلال والنهب، لكني أيضا كنت أرغب في البحث عن أي أوراق تركها أو تركتها يوليا تسهل لي إدانتها أمام الهيئة.

الجزيرة خالية كما توقعت لكن لا شيء يغري بالنهب، ذلك كان محبطا.

رأيت تلا صغيرا على قمته غرفة. توقعت أنها غرفة مجدي وهبة قبل أن يهجرها. صعدت. لا صوت يدل على حياة، الغرفة مظلمة، فتحت الباب. أضيء النور فجأة، صرخة جماعية كادت أن تودي بقلبي «هابي بيزداي تو يو يا ابن الوسخة». بالونات وطراطير

يرتديها أشخاص لم أميزهم. مجموعة مبتهجة من جنسيات وأعمار مختلفة. كانت هناك لافتة كتب عليها «جمعية محبي كافكا تهنئ ابن الوسخة المنتظر بعيد ميلاده».

ابتهجت. هذا أول عيد ميلاد لي في اللعبة. جلست وسطهم. أطفأت التورتة. قسمت الأنصبة. قبل أن تأتيني ضربة على رأسي من الخلف. وقعت مغشيا علي.

***

سيدرك فور أن يفيق أن الشيء الذي يحمله في فمه هو قضيبه المقطوع الذي أكلته يوليا. منكمش وصغير ولا يشبع فرخة لأنه بلا هبة أيضا، الهبة معها.

قضيبه الجديد لا يزال بين فخذيه. مجدي وهبة ومحمد علي كانا يشربان البيرة وينظران إليه بتندر. أعضاء جمعية محبي كافكا، ميتون. زومبي يتحرك على قدمين بوجوه مريعة، لا تشبه وجوههم عندما فاجؤوه بعيد ميلاد.

«هل أنت مرتاح في قضيبي؟» سأل وهبة. تحسس سيد الباشا شيئه. على الأقل عرف مصدر القضيب الجديد. نزع قضيبه القديم من فمه. ثم أدرك أنه لا يملك السيطرة على الشيء الجديد. بل يدين بالولاء لشخص سواه، جزء مستقل عن جسده. ربما يخرج أحيانا عن سيطرة سيده القديم وهبة، ويمتلك المبادرة بل والتحكم أحيانا في جسد سيد شخصيا.

سأل سيد: كيف أحضرت قضيبي القديم؟

غمزة لعوب من عيني وهبة، وصلت معها الرسالة. يوليا هي من أعطته إياه.. أوضح: في أثناء إغماءتك الجيدة، استعرت قضيبي. كانت ليلة رائعة. ديزني لا يشبعها. لكن ذكري أو ما أسميناه معا قضيب الخيانة لا يزال يعمل بكفاءة.. أتعلم ما الجزء الجيد في الأمر؟ كانت تحتفظ بهبتك في زجاجة، الهبة تسربت إلى روحها.. لا حل إلا أن تنزع روحها لاستعادته.

«بل بنزع اللحم عن الجسد، كسر العظم، لو لزم الأمر» قلت.

«يوليا.. خائنة في النهاية»، قال وهبة. ثم أكمل: منحتها مفتاح كل شيء. أوراقي التي دونت بها أن لا فكاك من البحر. أعطتها لديزني مقابل إذلالك، رؤيتك كمحطم وملعون والحصول على هبتك. ديزني لا يعلم كيف تعمل جملة «لا فكاك من البحر». لكنه سيعرف في النهاية. الجملة التي اخترعتها لحياتي الثانية، خطيرة حد أني لا أعرف حدود خطورتها. قد تساعده في الوصول إلى كتاب شمس المعارف وتدميره وإنهاء الأمل الوحيد بالفكاك من كل هذا، وإثبات كوننا لا نعرف شيئا، وكون المعرفة محض خدعة مصممة جيدا. معرفة تعمل كستار كثيف يحول دون المعرفة. حقيقة تحجب الحقيقة.

أشار إلى قضيبي المخلوع: الآن معك بالون فارغ عليك أن تملأه بالهواء باستعادة هبتك. أما قضيبي فسأستعيده منك فور أن نقتل ديزني وندمر الهيئة. استعمالاته كثيرة. ففضلا عن قدرته العالية على المضاجعة، هو بوصلة جيدة. يستطيع في أوقات كثيرة أن يعمل عكس هبتك القديمة، ويكشف لك الآمنين، المستقرين،

سليمي العقل، العاملين بهيئة الأمن القومي للكوكب، المشائين؛ إنهم يندسون وسط كل شيء كما تعلم.

وجه حديثه إلى أعضاء جمعية محبي كافكا: ربما تكون نجدتكم على يد نذل تافه.. ثم أطلق ضحكة مجلجلة وساخرة.

«محبو كافكا».. كشفوا عن عوراتهم، ذكور بفرج أنثى.. إناث بقضيب رجل.

إنهم عشاقها. قال وهبة. كل من أغوتهم يوليا. محاصرون هنا خارج أجناسهم. لقد أفسدت كل شيء، تلك ليست قضيتهم. كانوا يرغبون في تلك الغواية. آمنوا بها. لكنها خانتهم جميعا.

سألت: لمَ أسموا أنفسهم جمعية محبي كافكا؟ لماذا لم يسموا أنفسهم مثلا: جمعية مغدوري يوليا.

أجاب وهبة: كافكا اسم يضمن الاحترام الاجتماعي. ذلك مهم. لا أحد قرأ كافكا، الكل يستشهد به. ذلك بديهي.

أكمل: يوليا الآن تلعب في الصف الخطأ، مع مهندسي الكون ومفسديه. محبو كافكا سيساعدونك.. نواة جيشك الصغير الذي ستعود به إلى جزيرتك لتدافع عنها وتشن حربك. أعلم أنك تعيد استنساخ ضحاياك. إنهم طيبون حد أنهم لم يأكلوك حيا.

جاء دوري لأتكلم. عندما يدور الأمور حول لعبة شمس المعارف، فأنا الخبير.

«لدي فكرة ستختصر الطريق»

«ما هي؟» سأل وهبة.

«سنفسد اللعبة» الفكرة كانت لعوبا وأثارتني حد الرغبة في الاستمناء بقضيب وهبة: «لن أبني جيشا نظاميا الآن، سأحولهم جميعا إلى قراصنة وقطاع طرق وبائعي أفيون. سننشل الكل. بالصعاليك سأبعبص المماليك، سننمو أسرع. وربما نستهدف أثرياء اللعبة وأغبياءها، الذين يفضلون التطور في اللعبة عبر اشتراء الأمبروزيا بالفيزا كارد، سنحصل عليها لتطوير أبحاث المستقبل في أكاديمية السحر إلى أبعد مدى ممكن».

وهبة أيضا أثارته الفكرة. حتى إن قضيبه مزق بنطالي وحركني نحوه وأدار جسدي. ضربني وهبة على مؤخرتي، قائلا: عبقري!

كنت غاضبا من القضيب الذي يأتمر بأمر وهبة. عروس ماريونيت صرت، خيطه في قضيب.

لم أكن عبقريا، لكني أعرف أن اغترابي عن العالم حولني إلى متطفل مثالي.

***

من عشاق يوليا المغدورين، الزومبي المخنث، كونت عصابة من القراصنة. الملابس التي وزعتها لم تكن مناسبة بدوا مضحكين لا مخيفين، لكنهم عند القتال أثبتوا قدرة على الصمود فاجأتني.

بدأنا بغزو الجزر المهجورة، أكل المبتدئين في اللعبة. أطعمت جزيرتي بالذهب والموارد. أعلم السر: نجاحات صغيرة ستشجع الحمقى والتافهين على الانضمام إليك. وجهت إلى الأثرياء المدللين ضربات خاطفة، مكنتني من سرقة الأمبروزيا. استهلكتها كلها في

تطوير أبحاث المستقبل بإصرار تلك المرة.

لم نكن عصابة القراصنة الوحيدة. كانت هناك عصابات أخرى شهيرة. لكن وحدنا كنا نحمل هدفا أكبر. نعلم لماذا نسرق. لذا استطعت توحيد تلك العصابات تحت رايتي. صرت اسما مرعبا في عالم شمس المعارف. يخشاني القاصي والداني. سمعتي وصلت بالتأكيد إلى جزيرة ديزني.

قضيب وهبة كان يحركني. كنت أعلم متى يضاجع يوليا. تعامله كثور مزرعة ويعاملها كإناء لتفريغ شهوته. هما عدوان، يعرف وهبة أنها خائنة وتعرف أنه ميت يخطط لموتها وأن قضيبه في جسدي. لم أعلم قط كيف يتم الأمر.

ذات ليلة، قررت أن أتسلل إلى جزيرتها. كنت أرغب في رؤيتها. جزء قاتم ومهزوز بداخلي يخبرني أن أغفر كل شيء. أنا أيضا مخطئ. ربما يكون كل ما حدث محض هراء، ولا حق إلا لجسدين انتشيا ببعضهما البعض.

انتظرت الظلام. شققت الطريق بصحبة قضيب وهبة. وجهني انتصابه.

قتلت حارسين وثلاثة كلاب. بهدوء وصمت. ثم قتلت ثلاثة حراس لم يروني على سبيل اللذة. توقفت لأفكر. صرت قاتلا. لم أندم. تلك غريزة عظيمة، لقد ضيعت على نفسي لذة لا تقاوم طيلة سنواتي الماضية. ربما لو وجدت وقتا لطورت تلك الغريزة إلى أكل الأجساد.

تسللت إليها .. أول ما رأتني عايرتني عبر ابتسامات فهمتها بهبتي التي انتقلت إليها.

غضبي كان عارما «لمَ يا بنت الوسخة؟»، قلت.

أجابت بسخرية: غريب أن يسبني «ابن الوسخة المنتظر» بكوني بنت وسخة.

قلت: ذلك لقب مجيد.. أستحقه.

ضحكتها جلدتني: عن جدارة.

قلت باكيا: لم خنتتني؟

شخرت: أحه.. أنت لم تفعل شيئا سوى خيانتي، تسليمي، استخدامي.

قلت: لقد صنعتك.. صنعت مجدك.. أنت بدوني لا شيء.. كما أن خيانتك سبقت أي خيانة.

قالت: لقد تفوقت على مجدك.. كان زائفا وبائسا.

قلت: لقد سرقت موهبتي.

قالت: لقد سرقت حياتي.

قلت: ومنحتك أخرى.

قالت: صنعتها بنفسي.

قلت: عبر الغواية؟

قالت: حياتي كانت ملكي قبل أن أعرفك، لم تتعرض قط للفضح، للحساب.

قلت: كنت أعرف الهدف من حياتي قبل أن أقابلك.. الآن أسير

نحو هلاكي.

قالت: ستبيع حياتك مرة أخرى مقابل مضاجعة.. خلعت ملابسها.. فانتصب قضيب وهبة وسرت الحمى في جسدي.. كنت سأفعل.

ارتدت ملابسها مرة أخرى. وجدت سبعين جنديا حولي.. ديزني على رأسهم: قدموه للمشنقة في الصباح.

لم يجرحني احتمال الموت، بل ابتسامة يوليا المتشفية المنتصرة، التي حلت محل ابتسامة الغواية، كان أجمل ما فيها ونحن نتضاجع أنها كانت تبتسم، ذلك فقط ما أستطيع استعادته من لذتنا.

***

من غرف ضيقة كتلك يدار العالم. لكنها كانت زنزانة أنتظر فيها الموت. لم أبك. لم أشته شيئا. ربما شعرت بالراحة بالتخلص من ثقل هبتي وحياتي. هل سأفكر في خيانة يوليا بعد الموت؟ هل سأمتلك الوقت لأفكر في خياناتي؟ هل أصل بالموت لشمس المعارف؟

لم أعرف كيف أتصرف وأنا أساق إلى المشنقة. استدعيت ما رأيته في الأفلام. عندما جاءني من يسوقونني إلى هلاكي تثاقلت على الأرض. أجبرتهم على جري. فكرت أن الصباح لم يأت بعد. الهذا الحد تتعجل يوليا موتي؟

ثم رأيته. القزم الأصلع صاحب عبارة «المجد للكسم».

كان مبتسما ويحمل مشعلا ناريا. قال لي: أرأيت؟ كنت على الجانب الخطأ.. كان «المجد للكسم».

ركبنا وراءه على فرس من لهب. كان بردا وسلاما على جسدينا، بينما يحيل كل ما يمسه إلى رماد في الحال. اخترقنا دوامة هوائية.

ما أدركته من حديث القزم الأصلع: إني نجوت من الموت. القزم الأصلع ظل متمردا، لم يخضع لهيئة الأمن القومي للكوكب في النهاية. مجدنا الذي بني على قدرتنا على إخضاع الجميع كان زائفا.

أخبرني أنه يكرهني. يحتقر كل نفس يخرج مني. فكرة وجود أمثالي ممن يعملون مع هيئة الأمن القومي للكوكب رغم أنهم لم يخلقوا لهذا، تثير رغبته في القيء. لكن لا أمل لنا إلا بإنقاذ «ابن الوسخة» المنتظر.

حلق الفرس فوق أرض.

رأيت جمهورا هائلا، جيشا عظيما مسلحا وأسطولا ضخما.

هبط القزم الأصلع بفرسه، نزلت. شعب من المعاقين، المنبوذين، الشحاذين، غريبي الأطوار، مرضى الجذام، الفشلة، قاطعي الطريق، توليفة من المدانين اجتماعيا. عشاق ومغتصبين. بائعي الهوى، مخنثين، مدمني الخمر، مثليين، الأقزام، المهرجين.. كل ما لفظ كان هنا.

انحنى لي شعبي. سجد إن دق التعبير. ما أن فعلوا حتى انكشف لي طوطم على هيئة قضيب ضخم، طوله كمسلة، رأسه يحمل ملامحي.

قال القزم الأصلع: إلى هؤلاء انتماؤك الحقيقي. خنتهم قديما.

جاءتك الفرصة لتكفر عن هذا.

لم أفكر في كلمات القزم الأصلع، كل ما كنت أفكر فيه أن هذا مستوى جديد من اللعبة. لي جيش الآن. يمكنني الآن أن أقتحم جزيرة ديزني ويوليا. هل أقتلها فورا أم أستعبدها أولا؟ ستستجديني؟ ستبتسم؟ ستعرف أن سيدها القديم لا يزال حاضرا بهيبة جديدة.

وقفت أتأمل مجدي القادم. ضغطت على أيقونة الاستعداد. وقف جيشي في انتظار إشارة أخرى، صارخا بحماس.

ضغطت على أيقونة تحريك كتيبة. لكنها لم تتحرك. ظهرت لي رسالة: احصل الآن على مليون أمبروزيا لتحريك جيشك عبر الفيزا كارد.

شخرت. قال القزم الأصلع: سنحصل عليها إن تبعتني.

نظرت للجيش بحسرة. امتطينا الفرس وعدنا إلى جزيرتي المحمية بفرق القراصنة. لم نجمع أكثر من خمسة آلاف أمبروزيا من اللاعبين.

ظهرت لي المهمة القادمة: أبطل جهاز التشويش الرئيسي وستحصل على مئة ألف أمبروزيا إضافية.

جهاز التشويش الذي ذكرته يوليا على حسابها على فيس بوك كان حقيقة. علي أن أتبع الطريق الذي بدأته هي دون وعي. هي الآن في صف من ادعت كراهيتهم. وأنا علي أن أحارب من انحزت إليهم بمن خنتهم. أنا خائن الجميع.

***

قادني القزم الأصلع إلى مقهى سعد الحسيني. جلسنا لنشرب معسل السعادة الممزوج بالأفيون.

في التلفاز، كان إعلان معالجة الصلع أكثر حدة. الصلع لن يسلبك حياتك على سبيل الدعاية، بل حقا وصدقا، سيحظر على ابنك أن يعاملك جيدا، ستمنع من الزواج، أو الحصول على وظيفة مرموقة. سيسن ذلك عبر تشريعات. ذكر الإعلان أن هناك تشريعات أخرى تدرس لمعاقبة من لا يستخدم المنتج في إعلان الصلع.

«لقد خانتنا جميعا» قال القزم الأصلع. يوليا التي تقف وراء تلك الأفكار الآن، كانت تكشف طريقا لتقويض اللعبة. ثم هي الآن تفعل أي شيء لارضاء هيئة الأمن القومي للكوكب، تخون، تبلغ عن الجميع، تطرح أفكارا أكثر قسوة، وأكثر ربحا. تمكنت من إقناعهم بمشروعك الحقير: إعادة تدوير النفايات البشرية. أضافت إليه الاكتفاء بقتلهم فقط للحصول على طاقة الخوف من أجسادهم بتكلفة أقل من تكلفة مصانع بث الخوف. تسيطر على ديزني سيطرة تامة، حتى إنه تجاهل أنها فكرتك، وسمى المشروع بخطة يوليا. كما أنها استطاعت أن تقنعه بأن الوقت قد حان لإعلان أن للكوكب حاكما واحدا، ما زال حيا لم يمت. وأن يعلنا عن أنفسهما كملك وملكة. الأبله ديزني لا يعلم أنها تخونه مع قضيب وهبة، الذي أسميناه سرا في أروقة الهيئة: قضيب الخيانة.

يخططان معا لإجبار الجميع على تحميل تطبيق الخوف على

الهواتف الذكية، وأن يصبح الخوف علنيا وقابضا، أن يعمد به كل طفل. أن يزرع كرقاقة في الجسد.

قلت غاضبا: هراء.. جعل الأمر علنيا ودفعه نحو القسوة والوضوح محض غباء. إنها تقود الهيئة وديزني إلى حتفهما. الأمور لا تدار هكذا أبدا. البلهاء تسيء لسمعة موهبتي ولا تجيد استخدامها. ربما لم تعمل معها الهبة، ربما تحتاج الهبة إلى جسدي للتفاعل. ما زالت مجرد لا شيء، فتاة متوسطة الموهبة تتمثل أفكار الآخرين.

قال القزم الأصلع: ربما لم تكن موهوبا أصلا.. ربما أنت محض ملعون، مريض كهؤلاء الكتبة، الرسامين، المخترعين، أو أيا ما كانت صفتهم. ربما هم مرض العالم لا شفاؤه. منهم أدركنا المعرفة. من قال إنها حقيقية؟ من قال إن العالم هو ما رأوه أو إن الجمال هو ما أنتجوه؟ ربما العالم كما رأيته أنا.. تافه حد أن إتقان السعادة، تجاوز الليل والنهار هو نداؤها الوحيد. الموهوبون هم أداة تشويش الحقيقة.. لقد دُفن الكتبة، الرسامون، المخترعون الحقيقون أو أيا ما كانت هويتهم، أزيحوا إلى صف غريبي الأطوار، قُلص جمهورهم إلى قلة غريبة الأطوار مثلهم، يسهل محاصرتها، أسماؤهم تذكر بسرية. نحن لا نعرف سوى شكسبير، أديسون، بيكاسو، ديزني.. كلهم خادمون في محراب هيئة الأمن القومي للكوكب.. تأثيرهم الطاغي يحاصر الحقيقة.

لم أفكر في كلامه، كنت أفكر في شيء آخر قد يمنحنا الأمل ويخفف

مـن بؤسـه: ثمـة شيء لم ألتفت إليـه مـن قبـل.. حجـر الصفـاء الممـزوج بالأفيـون. إنـه يقـاوم الخـوف. لم أشـعر بالخـوف قـط في حضرتـه. لا توجـد أفضـل مـن مـزارع شـمس المعـارف لزراعتـه. سـعد الحسـيني وكل مقاهـي رابطـة حجـر الصفـاء لا تقدمـه للجميـع، بـل للفشـلة المختاريـن.

اقتربـت مـن شيء مـا، أشـعر بهـذا. حجـر الصفـاء يعمـل. كنـت أرى بـلا هبـة.

لم أفكـر كثـيرا. اسـتدعيت قراصنتـي عـبر الإسـكرين. احتلـوا المقهـى. خـرج جنـود مـن باطـن الأرض لمقاومـة قراصنتـي. القطـط شـجعتني وسـط دهشـتي مـن موقفهـا. سـعد الحسـيني كان حائـرا، ومستسـلما، سـيلعب مـع الرابـح.

تركـت المعركـة تـدور وأنـا أشرب حجـر الصفـاء مـع القـزم الأصلـع. انتصرنـا ببسـاطة. خـسرت قرصانـا واحـدا وجـرح لي عـشرة. علـم جزيـرتي رفـرف فـوق المقهـى في النهايـة.

. جـيء بسـعد الحسـيني أسـيرا. اعـترف بـكل شيء: رابطـة حجـر الصفـاء أسسـت لمقاومـة هيئـة الأمـن القومـي للكوكـب، مقاومـة ناعمـة، لا تجرهـم في حـروب تدفعهـم لسـحقهم. فقـط يقدمـون إجـازة قصـيرة مـن تأثـير الخـوف. إجـازة تمتـد وفقـا لتأثـير الأفيـون وارد مـزارع شـمس المعـارف، ومزجهـا بالشيشـة، اخـتراع مـصري قـام عـلى الفهلـوة. لا تهـدف الرابطـة إلى منـح إجـازة الخـوف للجميـع. بـل زبائـن مختاريـن. فشـلة لا يطمحـون إلى المقاومـة. لم ينسـاقوا وراء

دعاية النجاح المبالغ فيها. بل اختاروا حق الفشل عن قناعة. الحق الذي تسلبه الهيئة من الجميع. فقط إجازة تمنعهم من الانتحار وسط مجتمع رغم فشله يحتقر الفشلة.

القطط السبع هي أرواح لأسلاف المشائين العظام الذين أقروا في قديم الزمان: الحق في الفشل وانعدام الطموح والموهبة. لكن الأجيال التالية من المشائين العظام، كديزني، عملوا على طمس هذا الحق، تملك القطط السبع إرثا تاريخيا مقدسا، صار هشا وعبثيا مع الزمن. لكنه حقق لها صفقة الإفلات بحماية المقهى، وأن تحافظ على اللعبة البسيطة، بمنح عدد ضئيل من الفشلة إجازة الخوف. وأن تُستدعى في بعض الطقوس الخائبة، كأن تمثل لجنة الحظ والحكمة شكلا -كانت هي الأقزام السبعة- بينما ما تصدره من أحكام مكتوب سلفا بخط ديزني نفسه.

احتللت ما استطعت احتلاله من مقاهي الرابطة. صرت ملك الأفيون. تاجر المخدرات الأكثر شهرة. كما انضممت لزمرة الملعونين من الجميع، المطاردين، العاملين على منح البهجة سرا.

أفيون شمس المعارف، صار متاحا للجميع، لا المحظوظين منهم. خسائر مصانع الخوف بدأت. حماية الإرث المقدس للقطط السبع لن تدوم. الحرب بدأت. علمت أن الاجتماعات تدار لسحقي. الأساطيل ستتحرك لمقاومة قراصنتي واحتلال جزيرتي.

***

أعدت تسمية رابطة حجر الصفاء باسم رابطة سيد الباشا. لكني لم أنجح في تثبيت الاسم على هذا النحو. اسمها الذي أصبح له قوة السريان هو «رابطة ابن الوسخة المنتظر». لم أستطع أن أحدد إن كانت التسمية تيمنا بقدري أم سخرية منه.

من بين أزياء عدة فضلت زي درويش بعمامة خضراء وسبح تلف جلبابه. في الصحف أطلقوا علي: المجرم الصوفي.

كان علينا أن نطفئ نور إعلانات الطريق، حيث توضع الرسائل الخفية ويبث التشويش، وترسل أوامر المشائين الجديدة عبر كود معقد ورسائل التأثير الخفية على العامة.

عرفت الطريق. القزم الأصلع عرفه في الحقيقة، لكني تمكنت من إخفاء هذا. جزيرة السحاقيات. عشرة آلاف محاربة جميلة، حيث لا قيمة للذكورة. حاربن في البداية هيئة الأمن القومي للكوكب لتصنيفهن ضمن فئة غريبي الأطوار وكدن يهزمن. لكن مشاءة عظيمة -قيل إنها كانت تميل إلى بنات جنسها دون أن يتمكن أحد من إثبات ذلك- اكتشفت أن نسبة مختارة من السحاقيات لديهن القدرة على الإلهام وكتابة الكود المعقد ورسائل التأثير على العامة. أنقذن في تلك الصفقة من النبذ والقتل ومن طقوس السرية.

هنا على تلك الجزيرة، يصاغ العالم. تخرج الجمل البراقة التي تغويك لاشتراء باركود الخوف على المنتجات عن طيب خاطر. هنا تخلق الحاجة ولزوم ما لا يلزم.

كل أورجازم بين اثنتين -المختارات من السحاقيات- ينتج الوقود اللازم لتشغيل ماكينة الشره، التي تنتج الجملة البراقة والذكية.

وصلت إلى الجزيرة بصحبة جيش من القراصنة لا تزيد على مئة. لم يكن هدفنا دخول حرب، بل التسلل وتخريب ماكينة الشره تلك، لتنتج الجملة المخيفة للهيئة «المجد للكسم».

حذرت عصابتي من التعرض لنظرة إغواء منهن «لا قيمة لذكورتكم هنا، التفاعل مع نظرة إغواء منهن، قد تحيلكم إلى مخصيين، هذا العالم للنساء بأكمله». لم يكن هذا التحذير موجها لهم جميعا فبعضهم كانوا رجالا يحملون بالفعل فرج أنثى. لكن على القائد أن يقول شيئا ما.

بدأ كل شيء بشكل جيد. غافلنا حارسات نوبة النوم، بطلقات من أسلحة كاتمة للصوت. تساقطن كالذباب.

لم يتبق سوى مواجهة حارسة الماكينة. امرأة ضخمة في طول عمارتين لها عشرة أذرع، عشرة رؤوس، عشرة مهابل تطلق نارا.

كانت الخطة بسيطة: حراب تصوب في المهابل العشرة، ثم التضحية بعشرة قراصنة كطعم -لم أخبرهم بنيتي طبعا- ثم التسلل إلى ماكينة الشره، في أثناء غفلة الحارسة في مطاردة القراصنة العشرة والتسلي بأكلهن على مهل.

أطلقنا الرماح، وطاردت الحارسة القراصنة العشرة. الطريق صار خاليا.

لكني أخطأت- لم أعترف بذلك- كانت هناك أجهزة إنذار أيقظت

الجزيرة بأكملها. عشرة آلاف محاربة يحاصرن تسعين قرصانا وقزما أصلع وابن وسخة منتظر.

أسرونا. كنت تائها، خائفا. لم تنجح محاولاتي في إخفاء ذلك. انكشفت تماما عندما حاولت الحديث مع إحدى قادتهن. كنت أقود ناسي إلى المشنقة.

على عكسي، القزم الأصلع كان ثابت الجأش، يغازلهن، يدندن بأغان خليعة، حاولت إسكاته دون جدوى.

المحاربات أحبن القزم الأصلع. وضعونا في سجن، أما هو فاحتفظن به لكونه مسليا وظريفا.

بعد ثلاثة أيام عاد إلينا مخصيا وبفرج أنثى يصلح للمساحقة.

تضحية القزم الأصلع، أنجتنا.

صار منهن. أقنعهن بقدرتنا على تخليصهن من نير الهيئة وتحرير السحاقيات والمثليين والأقزام في العالم. بل أعد معهن معاهدة تحالف، لم يكن علي إلا أن أوقعها.

سنتتج ماكينة الشره عبارة واحدة: المجد للكسم. ستختفي كل إعلانات العالم في نفس اللحظة إلا تلك العبارة فقط، حتى إن القزم الأصلع رسم اللوجو بنفسه: فرج مثني على هيئة إشارة الأبدية ∞.

وقعت العقد وأنا أحاول إقناع نفسي أني مسؤول عن هذا النجاح. ما أن فعلت حتى تقاذفت الأذرع المبتهجة القزم الأصلع. تعجبت كيف لقزم أصلع بفرج أنثى أن يحظى بهذا التأييد والإعجاب.

عدنا بانتصارنا الذي نسب إلى القزم الأصلع.

في جزيرتي. ألبت الجميع ضده بحجة ترويجه لأن ينتمي الجميع للأنوثة لا للذكورة. وروجت أنه رفع شعار «مهابل لا قضبان».

ثم أعلنت مقتله لمخالفته للقانون الأول لكتاب ابن الوسخة المنتظر المقدس:

لا تلمع أكثر من سيدك

رأيت أنها فكرة جيدة بما أني منتظر، أن يكون لي كتاب مقدس باسمي، لم يكن الكتاب المقدس من تأليفي، بل أحد كتيبات المشائين العظام التي تسربت إلى العامة.. 48 قانونا للقوة.. لم أكن قد وصلت في قراءته إلا إلى القانون الأول عندما أعدمت القزم الأصلع.

كان كتابا ضخما، مليئا بالحكايات. أسميته تعاليم ابن الوسخة الثمانية والأربعين.

الأخلاق؟ إنها ليست كما نعرف أبدا.

***

أطلقت ماكينة الشره بعبارة: المجد للكسم. حلت محل الإعلانات الضخمة في الشوارع. أطلقنا كودا جديدا يحمل رسائل متناقضة للمشائين.

الشعار أطلق طاقات غريبي الأطوار. دمروا كل ما قابلوه في طريقهم، خرجوا من الشقوق، عرفوا الطريق إلى بعضهم البعض. ليسوا قلة، بل الأكثرية إن أدركوا. كونوا جماعات أقوى. حتى من

ظنوا أنفسهم عاديين ولم يعرفوا أنهم من غريبي الأطوار، اكتشفوا تلك الطاقات المنسية، المكبوتة، المقلمة والمهذبة والمخصية طيلة سنوات حياتهم.

انقلب الوضع. وصار المشاؤون الآن هم غريبو الأطوار. يمكنك أن تعرفهم من سلامة قواهم العقلية، من تصرفاتهم شديدة الرزانة والدقة. أكثر من ألف مشاء في الشرق الأوسط قتلوا على يد العامة خلال أسبوع فقط.

كان ذلك نجاحا مدويا أجل خطط يوليا وديزني لإعلان نفسيهما ملكا وملكة. تعالت أصوات داخل الهيئة نفسها بضرورة تنحية ديزني. بدأوا في حساب السنوات التي تولى فيها إدارة الهيئة وأنه مسؤول عن هذا الترهل والفشل. سمعت أن ديزني نفسه حاول إعادة العمل بقانون الحق في الفشل لتهدأة الغضب.

كنت أضحك في سري. وأبلور نظرية أن يوليا محض غراب بين، أينما حل يحل الخراب. هذا دور ديزني ليشرب من نفس الكأس.

لم تمر أيام قبل أن أفكر في خطوتي الثانية التي ستفضح كل شيء. سأنشر تعاليم ابن الوسخة المنتظر الـ48. القوانين التي تجعل من معدومي المواهب أقوياء وتهبهم أسرار الموهوبين السخيفة ولا تجعلها حكرا عليهم. بل سأطور الأمر إلى شروحات عملية أكثر وأمثلة. تحتل محل الإعلانات بعد سيطرتي عليها.

أنا عظيم.. لا شك.

***

بعد إعدام القزم الأصلع لم يناصبني أحد شراكة المجد. كان انتصارا مدويا وحقيقيا أشعل حماس شعبي. القطط السبع ورابطة حجر الصفاء وقراصنتي الذين ازاداد عددهم والسحاقيات المحاربات نظموا لي احتفالا. كان أول تدشين حقيقي لي كابن وسخة منتظر.

حصيلتنا من الأمبروزيا وصلت إلى نصف مليون. كان ذلك يعني اقترابنا من تحقيق هدفنا بتحريك الجيش الضخم واحتلال جزيرة ديزني.

لكن في تلك اللحظة التي كان اسمي يمجد فيها بوصفي بطلا، كنت أشعر بحنين للشجرة الوارفة التي أشعر في ظلها بالأمان: شجرة هيئة الأمن القومي للكوكب. ربما تلك هي اللحظة المناسبة لاستعادة هبتي وعملي وحياتي كما كنت أعرفها.

انتهت الحفلة. صحوت لأجد نفسي عاريا بين أحضان ثلاث نساء، وكذلك قراصنتي. كانت حفلة مجون رائعة: خمر وجنس ومخدرات. كان ذلك سيصبح أكثر روعة لو كنت أتذكر منها أي شيء عدا الصداع.

ثقيلا وعاريا بدأت كتابة الرسالة:

عزيزي رئيس هيئة الأمن القومي للكوكب.

بعد التحية..

رغم كل شيء.. كان علي أن أحذرك.. أعرف أني منتصر.. لكن إلام يفضي كل هذا؟ يوليا تدير الأمور بشكل خاطئ.. ليست مشاءة أصيلة.. بل هجينة.. تحقينها بهبتي لا يجعل منها شيئا.. إنها

تقـودك إلى هـلاكك.. محـض غـراب بـين.. مـلاك مـوت.. نذيـر شـؤم.. ميديوكـر أصـلي.

أطلـب بشـكل رسـمي إعـادتي إلى العمـل.. وإحالتهـا إلى التحقيـق أمـام لجنـة الحـظ والحكمـة.. أنـت تعلـم أني أسـيطر عـلى اللجنـة.. أعلـم أني في طريقـي إلى العظمـة.. لكـن أي فائـدة تجنـى.. لا ظـل للعظمـة بعيـدا عـن الشـجرة الوارفـة.

أسـتطيع أن أعيـد كل شيء إلى نصابـه.. سـأعيد ماكينـة الـشره إلى وضعهـا القديـم.. أملـك حلـولا لتطويـر كل شيء في الهيئـة.. امنحنـي الفرصـة.. وأعـد لي هبتـي وحيـاتي القديمـة.

المخلص دوما

سيد الباشا

الرد جاء سريعا:

ولدنا المخلص سيد الباشا

كسمك

والت ديزني

رئيس هيئة الأمن القومي للكوكب

الغصـة لم تصبنـي. لم أشـعر بـأي شيء. اسـتمنيت عـلى الأجسـاد العارية أمامـي. ثـم غصـت في الـشراب والمخـدارت حتـى نمـت مـرة أخرى.

***

حلـت الكارثـة، وتحـول نـصري السـاحق إلى ضربـة عـلى مؤخـرتي. فعلتهـا يوليـا وحلـت المعضلـة بفكـرة لا أشـك أنهـا مـن بنـات أفـكار

منيّ رجل ذكي ضاجعته.

عبر حملة مضادة حولت عبارة «المجد للكسم» من شعار للثورة إلى رغبة استهلاكية أخرى.

كانت الفكرة البسيطة هو تحويل شعار «المجد للكسم» لشعار لهيئة الأمن القومي للكوكب ذاتها. ثم تحويله إلى منتج: طابع بريد نقش عليه الشعار. ادعوا عبر الدعاية له أنه يعطي من يضعه على لسانه طاقة كبرى، بينما هو في الحقيقة يعيد الكائنات إلى قفص الخضوع الكوني. تبارى الكل على اشترائه اعتمادا على الدعاية الذكية والملحة، وعلى السمعة الساحقة التي بنيتها للشعار الذي نشرناه بعد السيطرة على ماكينة الشره.

نجحت الفكرة البلهاء. اشترى الجميع شعارا مزيفا. وأفسدوا مفعول الشعار الأصلي المزيف بدوره.

سواء كانت فكرتها أو تمثلتها من مني رجل آخر فلا أنكر إعجابي بتلميذتي النجيبة، بنت وسخة حقيقية. كما لا أنكر أن خسارتي دفعتني لتأكيد رغبتي بدفنها حية بعد تمزيق أطرافها.

لم أجد حلا. استمنيت مجددا على طوب الأرض ونمت. حلمت بها على سريري. قتلتها مرتين، ضاجعتها ثلاثا -تحول الحلم بها إلى نذير شؤم- رغبتي الحقيقية كانت في الاستسلام وإراحة روحي المنهكة من كل هذا المشي.

***

غافلا، سُرقت خزائن جزيرتي. لم يتركوا حتى مواردي من القمح.

عمت المجاعة. نجوت بصعوبة من ثلاثة اغتيالات أعدمت منفذيها. كانوا من جماعة ادعت أن دم القزم الأصلع في رقبتي وطلبت الثأر. الثأر شعار براق وآسر. لكن الحقيقة أن يوليا كانت هي من تمولهم سرا لقتلي.

وحيدا ومحاصرا رغم ملكي. اخترت أن أتمسك بشعلة الأمل التي ألهبها سليزي. لكن الأمور ازدادت سوءا، رغم تعمدي تكثيف السرقات عبر جيشي من القراصنة فإن السرقة لم تعد سهلة بعد احتلال يوليا للجزر التي هجرها أصحابها. لقد فهمت اللعبة سريعا. خسرت العديد من القراصنة لإطعام الجوعى.

سلبني اليأس كل أمل. لكن اليأس كان مفتاح الفرج، عندما وجدت نفسي أردد باستسلام العبارة المسروقة من سيناريو يوليا عن مجدي وهبة: لا فكاك من البحر.. لا فكاك من البحر.. لا فكاك من البحر.. لا أعرف كم مرة رددتها، لكنها تحولت في لساني إلى ذكر صوفي يبعث الراحة ويأسر قائلها، حتى إني لم أستطع التوقف عن ترديدها.

يومان كاملان ولساني لا يعرف إلا: لا فكاك من البحر. أحضروا ساحرا لعلاجي، لكن علاجه لم يفلح. في اليوم الثالث أصابتني الحمى دون أن يتوقف لساني عن الذكر.

في اليوم الرابع صحوت بلا حمى وبلا رغبة في ترديد العبارة. لكني وجدت الحل: خطوة الشطرنج التي تهزم خطوة يوليا أيضا.

سأبيع هذا الشعار أيضا «لا فكاك من البحر».

أمرت أجمل قراصنتي بارتداء قمصان بيضاء وبناطيل مكوية كمندوبي المبيعات، بحلاقة لحاهم الكثيفة ونزع قبعات القراصنة والعصابات السوداء على أعينهم.

ثم هبطنا إلى العالم. دسسنا أنفسنا في كل عمارة، كل شقة، محل، شركة، محل، شق. طرقنا كل باب، هاتفنا الآلاف.

قالوا ما دربتهم عليه جيدا: دقيقة من وقتك.. لا فكاك من البحر.. لا فكاك من البحر.. أتعرف أن حياتك تفتقد الشعار الجيد وأنك اشتريت شعارا مزيفا «المجد للكسم».. أي هراء.. لا فكاك من البحر.. الثورة زيف وفخ لتخضع من جديد.. اشتر حيلتنا الجديدة.. عالج نفسك من غرابة الأطوار.. لا فكاك من البحر.. تحرر.. افهم شفرة الإعلانات.. إعلان الشاي الذي تراه عاديا.. هو وسيلة لسلب إرادتك.. إعلان الكولا هو رسائل إلى المشائين في هيئة الأمن القومي للكوكب كي يدفعوك إلى الجنون.. لوضع قشرة الموز أمامك لرسم خطوة جديدة في حياتك.. إنهم يتبنون ثورتك لقمعها.. يقنعونك باشتراء بضاعة وضع عليها باركود الخوف.. حياتك ليست كما تظن.. إنهم يتحكمون فيها تماما عبر الأقمار الصناعية.. يسجلون أفكارك الجيدة كي يضمنوا استغلالها لصالحهم لا لصالحك.. تباع حياتك في سوق سوداء.. لا فكاك من البحر.. لا فكاك من البحر.. هم بدونك لا شيء.. يقنعونك أنك لا شيء.. أن ما تقدمه مرفوض.. بينما هم يتغذون على الجزء الحي منك.. أتعرف

كيف يتخلصون من غريبي الأطوار؟ بعصر أمخاخهم للحصول على الرحيق الجيد لإنتاج العسل الجيد.. كل فكرة مجنونة لقلب طاولة العالم وجعله مكانا أفضل.. يحصلون عليها وينفذونها بشروطهم كفكرة منزوعة المخالب.. لا فكاك من البحر.. أبطل مفعول كل هذا.. كن اللاشيء الذي أقنعوك أنك هو.. لا فكاك من البحر.. تخدير الجزء الحي بداخلك، إيقافه عن العمل مؤقتا لا يقتلك بل يقتلهم هم.. يبطل مصانع الخوف.. تأثير الأقمار الصناعية.. فقط إذا استخدمت منتجنا.. طابع البريد المضاد لطابع «المجد للكسم».. ستقتلهم.. لن تعود هناك حاجة إلى وجود هيئة للأمن القومي للكوكب تدعي أنها تنظم الأمور وتحمي حياتك.. سيكون كل شيء مثاليا من الآن وصاعدا.. سنستسلم ونصير ما أخبرونا أن نكونه.. محض فكرة في ذهن شخص عن العالم.. أتعرف النتيجة؟ ستحل هيئة الأمن القومي للكوكب، سيسرح المشاؤون لأنهم سيصبحون دون عمل حقيقي.. لن يلتقطوا أفكارنا المكبوتة وأحلامنا بعد الآن.. سنخفي أثرها.. كل طابع تشتريه هو خطوة في سبيل تحرير العالم.. طابع بريد نقش عليه أن لا فكاك من البحر.. سيهبنا الخلاص وربما الفكاك من البحر.. سيحررنا.. خلاصنا من غرابة أطوارنا هو خلاص من الهيئة ونفي لسبب وجودها.. سنستعيد قدرتنا على الثورة الحقيقية.. مت الآن واحي غدا.

اشتر الآن واحصل على طابع آخر مجانا.. كل ما تدفعونه هو تبرع لاشتراء أمبروزيا لشركة «سيد الباشا لتحرير العالم المحدودة».

كان النجاح ساحقا. مليون أمبروزيا في أقل من شهر. الآن يمكن أن أحرك جيشي الضخم. صدرنا الطوابع إلى العالم كله. فكرت أن علينا استنساخ شعارات أخرى للتوسع واستثمار النجاح.

***

طُرد ديزني من هيئة الأمن القومي للكوكب. حكمت عليه لجنة الحظ والحكمة -التي رشوتها بلحم مفروم- أن يحقن بحقنة العدم. سيختفي ذكره من العالم وتنتهي سلسلة حيواته بعد الموت.

يوليا اختفت عن الأنظار، وهربت من الحكم الصادر بقتلها. كانت تنتظر ما سيسفر عنه الموقف الجديد، ومني الرجل الذي سيحكم الهيئة لتتمثل به قبل أن تأكل قضيبه وتنجو. فشلت محاولاتي في أن أصبح مدير هيئة الأمن القومي للكوكب الجديد. أنا عدو الهيئة الأكبر. من سلبتها مبرر وجودها. جيشي الضخم احتل جزيرة ديزني، لكنها اختفت باختفاء ديزني واختفى معها جيشي كاملا. لم أحسب الأمر جيدا.

***

الحياة هي خيانات متتالية.

لذا لم يجد وهبة الذي يتحكم في قضيبي غضاضة في أن ينقذ الهيئة من الانحلال. قدم المشروع التالي: تسريح المشائين من العمل وإعدامهم سرا. والاكتفاء بالمجموعة التي اختارها سيد الباشا من قبل، مجموعة غريبي الأطوار التي جندها لكشف غريبي الأطوار. وتغيير

هدف الهيئة من مطاردتهم إلى جعل غرابة الأطوار هي القانون الذي يتحكم في العالم. وبعد أن يصبح العالم غير قابل للضبط، ستستعيد الهيئة دورها بضبط إيقاع العالم ومطاردة غريبي الأطوار من جديد.

كان حلا يائسا ومعقدا ويحتاج إلى مئة عام على الأقل لتنفيذه. لكن الهيئة لم تجد حلا أفضل للبقاء. فاختير مجدي وهبة الذي يتحكم في قضيبي رئيسا لهيئة الأمن القومي للكوكب. أول قراراته كانت عفوا عن يوليا التي استعادها ومكنها من جديد من السيطرة على المقدرات في الهيئة.

لقد بدلنا الأدوار. كان ذلك سخيفا وعبثيا. الأسوأ أني صرت لعبة في يد وهبة الذي يحركني الآن. احتل جزيرتي ببساطة. طردني منها. عدت شريدا ويائسا وعاديا ولا أعرف هدفا لحياتي القادمة ولا أمل لي في استعادة حياتي السابقة. كانت مهمة وهبة الأولى: هي قتلي واستعادة قضيبه.

*****

الفشل

سيد الباشا اختفى. قيل إنه قتل.

استفادت الهيئة جيدا مما حدث لسيد الباشا، حولته إلى منتج جديد، شعارات، صور على التي شيرتات، الماجات. أعطاه الإفريقيون ملامح زنجية وأبناء آسيا أعينا ضيقة كابن وسخة منتظر. آمن كثيرون بعودته.

يوليا أذاعت نبأ وفاته بنفسها، بصوت حزين وعينين متشفيتين.

احتلوا جزيرته على شمس المعارف. فتشوا كل شبر عن فاروق علي بحثا عن كتاب شمس المعارف لكنه لم يظهر.

يوليا ووهبة أعلنا حكمهما للعبة شمس المعارف كملك وملكة. لم يعد هناك تحالفات كبرى. لم تنته اللعبة. استغلوا كل شيء. طاردوا اللاعبين في بيوتهم الحقيقية. الخطة الآن التي تعمل هيئة الأمن القومي للكوكب على تنفيذها أن يتحول العالم كله إلى شمس المعارف، وأن تمتد حدود اللعبة من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي. كل البشر سيتحولون إلى لاعبين وعمال، أسياد وعبيد. كان هناك هدف فرعي أن تتسع الرقعة كي لا يختبئ فاروق علي. أين يذهب فاروق علي أبعد من كوكب؟ كل الموارد تصب في خزانة يوليا ووهبة. سموا الأرض وهبة والشمس يوليا.

محت يوليا الأهرامات في لحظة سكر. صك وهبة وجهه على عملة الأمبروزيا وجعلها العملة الموحدة للعالم. صارت بلا قيمة في عالم اللعبة بعد أن صارت في يد الجميع.

وهبة كان مؤرقا من فقدانه لأثر قضيبه مع فقدانه لأثر سيد الباشا. لقد أرسل من يقتلونه. لكنهم أكدوا له أن جثته اختفت بمجرد الطعن.

لم تصل الأقمار الصناعية، الكلاب، البصاصون، المشاؤون إلى قضيب وهبة. اضطر إلى تحمل خيانات يوليا العلنية له. بل صارت متعته أن يراها وهي تضاجع من قبل آخرين. يتفنن في إخراج مشاهد المضاجعة بنفسه. يضيف اللمسات، الأدوات، الأوضاع التي يفضلها. لم يشغلهما ذلك عن تقسيم الأرض بشكل جيد إلى مقاطعات لا دول تسهل له التحكم في كل شيء. جوهر الأمر أنه لم يكن هناك أسياد وعبيد، لأن الأسياد بدورهم كانوا عبيدا ليوليا ووهبة الذي كان بدوره عبدا خاضعا ليوليا حتى لو لم يكن ذلك علنيا، حتى لو أنكر ذلك وأقنع نفسه أنه من يدير كل شيء.

يوليا كانت تذكره من آن لآخر أن بحثه عن قضيبه يعطله عن البحث عن كتاب شمس المعارف لإحراقه «لا أمان لنا دون أن نعثر على الكتاب» حاول إقناعها دون جدوى أن العثور على قضيبه هو خطوة نحو الحصول على كتاب شمس المعارف. لم يكن ذلك حقيقيا إطلاقا.

***

شريط حياتي مر أمام عيني. طعنت عشر طعنات. القتلة توقفوا عندما اختفى جسدى من أمامهم. كان يطير قبل أن يسقط في مقلب قمامة. رائحة القمامة أصابتني بالنشوة. ذكرتني بمهمتي الأولى في جمع أكياس القمامة. جثة منزوعة الموهبة. لحظات الموت مناسبة جدا للتفلسف. لقد فشلت. لم يكن ذلك بالضرورة شيئا سيئا.

لو كتب لي عمر لآمنت بالحق بالفشل، لصارت تلك نبوءتي ورسالتي للعالمين.

رأى سيد الباشا فاروق علي. أول ضحاياه. مفتاح الطريق إلى شمس المعارف. محمد علي. السحاقيات. رأى كل من ظهروا في حياته فجأة واختفوا فجأة دون أن يعرف لمَ. بل رأى القزم الأصلع الذي قتله، لم يكن غاضبا.

أيقن أنه مات. وأن جسده سيستريح أخيرا من لعنة إلحاح شهوة النجاح. لكن محمد علي سقاه سائلا. غفا بعده. بعد ثلاثة أيام وجد نفسه في مخبأ تحت الأرض.

مخبأ معد جيدا. يعرف هذا المكان. قابل فيه فاروق علي للمرة الأولى قبل أن يشي به. ليس لأحد أن يفكر في بساطة خدعته: لم يترك مكانه من الأصل.

فاروق لم يعد طيبا كما كان، يمكن إدراك ذلك من عينيه، يستشري فيهما جنون عجيب.

كان يقود فريقا من أطباء يضعون على معاطفهم البيضاء علامة

النازي. يجرون تجارب مميتة. يقلعون أعينا. يحقنون القلوب بسيانيد. عمليات تحويل جنس وإخصاء إجبارية. يقطعون رؤوسا لتجريب رؤوس آلية مكانها، مراوح، أباجورات، رؤوس ماشية. مسوخ تتحرك في المكان.

قال فاروق علي لسيد الباشا: لا تخف .. لا أحد يموت هنا كما ترى.

ارتجف سيد الباشا من الرعب. بدا توقيتا مناسبا لانتقام فاروق علي المؤجل. فاشل بصحبة مختلين.

أربعة رجال وامرأة ضخام الجثة، قيدوه. بلغ سيد من اليأس حد أنه لم يقاوم.

دفعوا به إلى ما ظنه سيد مفرمة لحم ضخمة. رسم عليها وجه ديزني بجسد بقرة. أهذا هو مصير المتحكم السابق في الكوكب؟ أجابت آلة تقرأ الأفكار: هذا مصير الفاشلين والحمقى.

دفعوه داخل المفرمة التي لم تكن كذلك مع وعد شفاهي بأنه لن يموت إذا ما دخل آلة الموت تلك.

لم يشعر سيد الباشا بشيء بالداخل. كانت هناك نيران أعقبت تقطيع اللحم. لكنه عرف أنه تفتت تماما. تحول إلى رماد منثور. بلا ألم. لم يمت. صدق فاروق علي في هذا. كان واعيا بكل شيء رغم أنه عمليا لم يكن هنا.

أخرج فاروق علي الرماد. ثم قرأ عليه كلمات بلغة لم يفهمها سيد الباشا. أضاف حجرا، طحنه مع الرماد، ثم أضاف نقاطا

محسوبة من سوائل، ثم قلب منتجه. لم يشعر سيد الباشا إلا بالدغدغة. ثم قرأ كلمات أخرى ميز فيها سيد جملة: كتاب شمس المعارف.

إضاءة قوية أغشت بصر سيد الباشا. ثم رأى حروفا وكلمات من كل اللغات. بثت الرعب داخله، لم يكن جاهزا بعد ليعرف. صرخ فاستعاد جسده في ثوان.

شخر فاورق علي: أفسدت كل شيء أيها الأحمق. كنا على وشك الوصول. لن تتمكن من تكرار الأمر إلا بعد عشر سنوات من الآن لأن جسدك لن يتحمل. ربما لست مختارا ولست ابن وسخة منتظرا.

بكى سيد الباشا كطفل من هول التجربة. رق له المسوخ وتحلقوا حوله، ربتوا على كتفه وعاتبوا فاروق على قسوته «لم يكن من المناسب إعادته من موت إلى موت، كان يجب أن يستريح أولا».

تركهم فاروق علي غاضبا.

مسخ بجسد منبه وقدمي ضفدع ولسان ثعبان حاول أن يهدئ من روع سيد الباشا: لا عليك.. فاروق طيب وينتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر.

قال سيد وسط نهنهته: فشلت في كل شيء.

ضحك المسخ: هذا هو المطلوب تحديدا.. ابن الوسخة المنتظر شخص فاشل أيضا، الأكثر فشلا، بقدرته على الوصول للقمة ثم الوصول للقاع، مضيع الفرص، محرر البشرية من شهوة النجاح..

مانح الحق في الفشل للآخرين، الوحيد القادر على فك طلاسم النسخة الأصلية من كتاب شمس المعارف، الكتاب الذي سيهبنا الحقيقة، النجاح ليس ما نعرفه.. كلنا هنا فاشلون بالخطأ لأن نماذج أخرى طرحت علينا.. فشلك سيحررنا.

مسح سيد الباشا دموعه وقد لمع شيء في عينيه: هل تملكون النسخة؟ كانت مع فاروق علي طيلة الوقت أليس كذلك؟

كنت أفكر في شيء آخر، سرقة النسخة، استعادة هيبة الأمن القومي للكوكب، وهبتي من جديد، أن أصعد على القمة التي أستحقها سيدا للعالم، ومديرا للهيئة التي أفسدها ديزني ووهبة ويوليا.

آلة قراءة الأفكار ردت: لن تنجح.. لا مسار لك الآن إلا الفشل معنا.

لذت بالصمت محرجا، المسخ ضحك.

ثم انقلب إلى هيئة عازف ربابة وغنى موال حسن ونعيمة «لو كنت أعرف بأن الوعد متداري».. تسلطنا.. فاروق علي فتح مخروطه الزجاجي، وانضم إلينا.

***

قال فاروق علي: عالجوني من شهوة الكلام. كنت أظن ذلك أمرا جيدا. صرت أتحدث بشكل طبيعي كالآخرين، فقط عندما أحتاج إلى الحديث. كنت أشبه بسيارة ذهبت إلى التوكيل وعادت بلا خدش. لقد منحوا عقلي صيانة جيدة.

عرفت أنك صاحب الوشاية، لست غاضبا الآن.

لم أكن أعرف أن مرضي قربني من سر خطير كسر كتاب شمس المعارف. أنت أيضا لم تعرف. هم أيضا لم يعرفوا. لذا تركوني بعد أن حصلوا على شيء ما في دماغي، لم أعرف أنه هبتي، كان يشبه حبة زرقاء، حجرا كريما، قالوا إنه ورم في المخ وإنهم عالجوني. لم أدرك أي شيء سُلبت. سُلبت أحد أسراري للولوج إلى كتاب شمس المعارف.

لم أكن مريضا بشهوة الكلام. كنت وسيطا لكتاب البشرية الكبرى. كانت البداية لعثمة. أحكي خرافات وأساطير عبرها كدت أقترب من حقيقة كل شيء، من الأسرار المخفية عنا.

طاردوني من جديد بعد أن عرفوا أن الحجر الكريم لن يعمل إلا عبر دماغي، حاولوا تركيبه مرة أخرى، لكنه لم يعمل. لقد فقد سحره.

قرروا استغلال جسدي في تجاربهم، بعد أن فقدوا الأمل في حجري الكريم. فككوني تماما، طحنوني كما فعلت معك، حولوني إلى رماد. ثم أعادوني من موت إلى موت.

لكن ذات يوم، عادت إلي رؤيا الكتاب الذي يبتلع كل الكتب. كتاب شمس المعارف. أشار إلى طريقي. أضاء الكلمات التي جعلتني أنزع سر قدرتهم على تفكيكي وطحني وإعادتي إلى الحياة، ثم ساعدني في إيجاد طريقة للهروب، والتي محاها الكتاب من عقلي بعد ذلك، أن أنتقل من مكان إلى مكان آنيا، أرشدني إلى

حيث بدأت: مخبَئي الأول حيث كشفتني. لم يكن أحد ليفكر أن مطاردا قد يعود إلى مكان كشف فيه. قبل أن أهرب تركت لهم يد حارسي مقطوعة، وإصبعه الأوسط موجها إليهم، بجوار رأسه التي اجتثثتها.

ما أن وصلت إلى المخبأ حتى اختفت الرؤية مجددا. كان علي أن أصبر فقط لأدرك أن المخبأ هو المقر الرئيسي لأكاديمية أبحاث المستقبل في لعبة شمس المعارف، وأنه تخفى طيلة تلك السنوات على هيئة مخزن.

الجانب السري من اللعبة كان في المخزن الذي استأجرته قبل عشر سنوات من الآن. تظن نفسك فاشلا؟ ها قد وصلت إلي عبر فشلك لا عبر نجاحك في جمع الأمبروزيا.

كنت أنتظرك. كل تجاربي هنا هي الفشل ذاته. كنت أتسلى في انتظارك باختراع مسوخ لا طائل من ورائها.

أخبرني شمس المعارف أن ابن الوسخة المنتظر وحده القادر على فك طلاسمه ومنح السر للجميع، لمعدومي المواهب والمنبوذين.

سأساعدك. أنا أؤمن أنك قاتلي. لكن لا فائدة من الكراهية والغضب. إنه القدر، ينسج ما أراد ويدفعنا إلى ما لا نريد.

«لكن كيف أصل إليه؟ لم أعد أملك شيئا».

بل تملك، أجاب فاروق.

«قضيب وهبة، ومسوخي.. الأول قد يكون فخ صاحبه.. أما مسوخي فلا أضمن أنهم سيكونون ذوي فائدة عظيمة، لكنهم قد

يكونـوا مسـلين في رحلـة موحشـة وغـير مضمونـة كتلـك».

المسـوخ تراقصـوا مـن حـولي، أجلسـوني القرفصـاء في وضـع تمثـال بـوذا، دهنـوني بلونـه، ثـم قذفـوني بطماطـم.

عُمـدت مـرات عـدة، نـذرت لطـرق لم أعرفهـا، لم تكـن تلـك المـرة أكثرهـا مرحـا. لا خـلاص لأحـد ولا لي.. لكنـه المسـار الوحيـد المتـاح ربمـا.

*****

عرض سماوي لإله

روحها بلا شيء مميز. تعرف ذلك منذ الصغر. وجهها طفولي يمنح الأمان، لعبة يمكن طيها. حولت ذلك إلى مصدر قوة. رغم أن المدقق قد يدرك أي شر وعبث وفراغ قاتل يختبئ خلف كل هذا الأمان.

عرفت يوليا الكثير عن العالم عبر مني الرجال ورحيق النساء. كل فكرة امتلأت بها، حمستها إلى درجة الجنون، تقمصتها، حد أنها توحدت معها، دافعت عن كل شيء لا تملكه بشراسة.

الآن، كل شيء متاح بدرجة أكبر. هي سيدة كل هذا اللاشيء، سيدة العالم؛ تستطيع أن تقيم عشرات المضاجعات في اليوم، بحثا عن المعرفة، السر وسد الفراغ. علوم هيئة الأمن القومي للكوكب التي صارت تحت يديها كانت مفيدة في منحها القدرة على النيك كل هذا الوقت.

لذا فقدت اهتمامها سريعا بكتاب شمس المعارف. ستؤلف كتابها الخاص. عبر كل رحيق تمتصه ستدرك سرا صغيرا، جزءا من قطعة البازل الغامضة التي تمثل العالم.

«محض كهانة جديدة» قالت يوليا فجأة عن كتاب شمس المعارف.

***

لم تتنازل أبدا عن فكرة القضاء على سيد الباشا. وحدها كانت توقن أنه لا يزال حيا ينتظر كثعبان لم يُدهس رأسه، ينتظر الفتك بها بدوره.

لم تكره أحدا كما كرهته. كره يملأ قطعة من الفراغ. لقد عراها تماما. ثم تركها وحيدة، منبوذة، بحياة معرضة لكل طعنة. لولا قدرتها على الغواية لما نجت. إكسير موهبته في روحها لا يعمل. لا يحرك فيها سوى الغثيان والطموح أيضا.

عرفت منذ انتقلت هبته إليها أن داخل روح سيد الباشا هواجس لم يدرك أنها أهم وأخطر من كل ما آمن به وحاول تنفيذه، خطة مكبوتة لم تكتمل، سرقتها الهيئة عندما مرت به كهاجس تجاهله.

تنفيذ تلك الخطة توقف لأسباب بيروقراطية بحتة داخل الهيئة، وصراعات بين أعضائها النافذين في مواجهة ديزني الذي حاول أن يطبق هاجس سيد الباشا المسروق ويسمي العالم باسمه. أن يحركه ويتحكم في أقداره كيفما شاء كإله. أن يقنع الناس أنه ليس مجرد سيد للعالم وحسب. لكن إله أيضا. إله سيخترع ديانة واحدة للجميع ويبطل ما عداها.

وهبة لم يعد بالنسبة لها أكثر من مطية. لا يستحق أن يكون إلها في نظرها. ستكونه هي. قررت بعث المشروع من جديد. ستصدر قرارا بإلغاء الأديان وتستبدلها بها دين يوليا. لا هويات، ستصير الهوية هي هوية يوليا. عملة موحدة للجميع ستسمى عملة يوليا. ستحول المشائين إلى الجيش الوحيد في العالم. ستجعل

ظهورهم علنيا ومسلحا. الكل في خدمة يوليا. أدركت أن ما تنفذه الآن هو سدرة المنتهى للمشائين العظام، حلمهم الخفي والمكبوت وجوهر ما أرادوا.

هذا ليس سهلا. عليها أن تتخلص من كل ما سبق كذبتها الجديدة. مصارعة المعرفة التي حجبت المعرفة، والحقيقة التي تهدف إلى إخفاء الحقيقة.

***

عبر أحد مشاريع هيئة الأمن القومي الكوكب، الذي يعرف باسم مشروع الشعاع الأزرق* ستبدأ خطتها عبر غاز الكيمتريل، الذي اكتشفه أحد علماء الهيئة عام 1996.

أكملت يوليا المرحلة الأولى من المشروع الذي كان محض هاجس خفي في ذهن سيد الباشا: عبر صناعة زلازل في أماكن معينة من العالم باستخدام الكميتريل القادر على تغيير المناخ، إشعال البراكين، صناعة الزلازل. تحديدا في الأماكن التي تحوي معارف تبدو أزلية، آثارا، مقدسات.

الرسالة المقصودة: لا شيء خالدا. تلك الأشياء ليست حقيقية بالقدر الذي تظنونه. إنها هشة قابلة للزوال كما كانت قابلة للخلق.

ستمهد بذلك للآتي: كل ما تؤمنون به كان خطأ.. إقامة الفراغ هو السبيل الوحيد لإقامة إيمان جديد.

أنهت المرحلة الأولى بنسبة نجاح ضعيفة.

ستقوم اليوم بالمرحلة الثانية: عرض فضائي ضخم. مجسمات في السماء لكل الرموز الدينية، ستختلق أشكالهم. ستجمع معهم أبناء الهيئة الخالدين: الأشهر منهم، كتوماس إديسون، بيكاسو، جمال عبد الناصر، جيفارا، محمد علي الذي نجحت في اصطياده. نزعت من يده قطعة الثلج واحتفظت به في خزانة. ستحقنه حقنة العدم بعد العرض لتنهي ذكره وأثره، كما أخبرها هاجس سيد الباشا.

لم يفت أحد في الكوكب، ولا النمل في الجحور، هذا العرض الذي سبقته إعلانات مكثفة، حملت إغراءات على غرار: كشف حقيقة العالم كما لم تعرفه من قبل.

ستستخدم في ذلك كاميرات وأجهزة بث ضخمة عبر أقمار صناعية تحت الأرض عبر تقنية الشعاع الأزرق. ستقوم بتوليد مفاعلات ذرية في السماء لتحولها إلى صور ومجسمات ثلاثية بغرض إقناع العابرين أن من يحدثهم إله، وتأمر الجميع بالدخول في زمرتها واتباع ديانتها ونبذ الأديان التي فرقتهم.

فعلتها وسط أجواء احتفالية صاخبة. لكن ذلك وعلى عكس ما اعتقدت لم يأت بالنتيجة المطلوبة. بل كاد يقوض سلطتها على العالم. الإيمان لا يسهل انتزاعه عبر عروض سيرك.

لكنها حظيت بشلة مؤمنين رائعين لا يتجاوزون المئات. أسموا أنفسهم المتنورين. انضموا إلى من دستهم للهتاف باسمها. لمن مثلوا الإغماء والدروشة والإيمان. فكرت أن تقتل هؤلاء المتنورين

فورا. فليس هناك أخطر على إله من مؤمنين حقيقيين. لكنها قررت أن تحتفظ بهم في النهاية لحاجتها إلى الدعاية واستيعاب الكفرة الآخرين.

قررت أن تخطو إلى المرحلة الثالثة. لن تخاطبهم من أعلى بل من داخلهم، عبر ذبذبات كهرومغناطيسية تؤثر على الإدراك. سيظنون أن الإله يكلمهم من داخلهم وأن ديانة يوليا هي الديانة الصحيحة.

نجحت يوليا في خلق هزة كبرى بين سكان الكوكب الذي ابتلعته لعبة شمس المعارف. لكنها لم تنجح إلا في خلق مزيد من الحروب رسخت لإضعاف قبضتها على الكوكب وتغيير خارطة القوى في اللعبة، ومهدت لنشأة تحالفات جديدة كانت قد قضت عليها من قبل.

قدم وهبة النصيحة: لقد نسيتِ شيئا مهما.. ليس بإمكانك أن تكوني إلها دون أن تخترعي الشيطان.

لم تجد يوليا أفضل من إقناع الناس أن في الطريق هجوما من شيطان يسكن في كوكب بعيد، جاء ليقاوم الإله الجديد بعد أن أعلن عن نفسه. سيستولي على الأرض ويتخلص من البشر ولا سبيل لصده إلا باتحاد الجميع حولها والقبول بها كسيدة وإلهة. لم تجد أفضل من صورة سيد الباشا مشوهة ومخيفة. هكذا فسرت غيابه.

فعلت ذلك ببساطة استخدام مجسمات تخيلية كما فعلتها

بعرضها السماوي السابق. أثارت كائناتها المتخيلة الذعر. استولت على مدن كاملة. صناعة القتلى والخراب كحقيقة كان سهلا.

خلقت وحشا هائلا له وجه سيد الباشا مشيطنا. ثم قامت بدحره في عرض بُث إلى جميع العالقين بالكوكب.

عبر سيطرتها على كل شيء. السماء، الأرض، الميديا، دواخل النفوس. نجحت يوليا في إجبار الملايين على معاملتها كشيء أكبر من سيدة للعالم وزوجة ملك. الباقون عبدوا ما أرداوا سرا وأعلنوا إيمانهم بها خوفا من البطش.

***

كل هذا النجاح لم يقنع يوليا ولم يشفها من الشره والفراغ. ابتلعت المزيد من القضبان والأشداء كإلهة لا تعبأ بالخير أو الشر لأحد.

عملت مع الهيئة على اختراع يتيح لها مضاجعة كل من في الأرض لتبلغ المعرفة النهائية. اصطدمت رغم كل ما أوتيته من قوة بصعوبة الأمر.

أحدهم أخبرها: لا يمكن لعلمنا المحدود أن يتيح ذلك. لكن ربما إذا ما توصلنا لكتاب شمس المعارف أن نمحو كلمة المستحيل في تحقيق رغبتك.

أعادها ذلك إلى النقطة التي كرهت البدء منها: شمس المعارف. الكهانة الجديدة التي تهز سلطتها كإلهة.

***

لم ييأس وهبة من استعادة قضيبه. الأمل بلا وصول أفاض به إلى الدروشة. هام بقضيبه المفقود حد الوجد، ثم بلغ حد الفناء، ثم أفاق من فنائه ليفكر في الفلسفة.

يوليا التي ترغب في مضاجعة كل سكان الأرض لم تعد تراه. لا تفكر في قضيبه المفقود -قضيب الخيانة الرائع- كقضيب محتمل. لم يعد ذا سلطة أو حضور. الكل يعرف أنه سيد وهمي يبحث عن قضيبه، ويضيع فرصته الثانية في الحياة. كل ما استطاع أن يحصل عليه من يوليا تلك المساحة فقط: تحتاجين إلى شيء عميق يدعم منصبك كإله. شيء جديد. لم تقترب الأديان من الفلسفة كسبيل لكتابة كتبها المقدسة.

قدم لها نسخة مبدئية اعتبرتها يوليا لغوا كاملا. لغوا يناجي فيه قضيبه الضائع. أضافت له بعض اللمسات، سطرا أو سطرين. ثم شطبت سطورا كتبها وأحلتها مكانها أخرى ثم بدأت في إضافة صفحات كاملة. ثم اعتاد وهبة في الأيام التالية أن يقدم لها صفحات بيضاء لتسودها بما تشاء.

كان يظهر يوميا على الشاشات ليخبر الناس بفلسفة يوليا. يدس جملة هنا أو هنا من جمله. جملة مقتضبة عابرة يقولها بعادية وبلا اكتراث حتى لا تلحظها يوليا.

بعد مئة يوم من الظهور المتكرر سينهي نظريته الأولى. جملة مدسوسة وراء أخرى تتسلل إلى الآذان. كانت تضيع في الأثير. يئس من أن يسمعها أحد.

بعد مئة يوم أخرى. تصادف أن لخص شخص ما حكمة وهبة في عشر وصايا.

جمعت تلك الوصايا بين الأفواه، حفظت في الصدور. سفر وهبة المبعثر والمعاد تركيبه.

«المتعة هي الحل.. القوي يمتلك العالم.. لا يمكن للبشرية أن تنتظر الضعيف حتى يصل.. في ظل كل الدعاية الأخلاقية المرسومة على مقاس إنسان افتراضي ليس لنا إلا هورموناتنا لتذكرنا بالإنسان الطبيعي.. الذكاء فتنة.. المبالغة في تصدير الشرف توأم لصيق للشرمطة.. فلتكن الفجوة بين الطبقات.. ليس على الفائز احتكار الفوز وليس على المهزوم اليأس.. الجسد شمعة تحترق لكي يتمتع الآخرون.. يسبون المتعة ويمدحون الظلام، هؤلاء هم الظَلمة.. الفضيحة وحدها ستحرك العالم الراكد».

انتشرت الوصايا العشر باسم وصايا وهبة. انتشرت بين الناس مادحين وذامين. فتنت من صدقوها عن يوليا التي بذلت جهدا كبيرا كي تحاول نسبة تلك الوصايا لنفسها، لكنها تراجعت بعد أن شهدت انقساما كبيرا حولها.

ثم قررت أن الأسهل هو تقديمه كأحد أتباع الشيطان. بينما هو يقدم نفسه كمفكر ليس أكثر. لم يكن وهبة من داخله يرغب في أبعد مما ترغب فيه هيئة الأمن القومي للكوكب: مقاس واحد للعالم. لكن جمله كانت واضحة وبلا سحر أو قدسية، لذا تعرضت للنقاش، للنقد، للقسوة، وللإعجاب أيضا.

لم يعرف أحد إن كانت كلمات مهمة أم كلمات ضحلة.

حاولت اللعب بكارد الشيطان من جديد. فأعلنت أنه لا يزال حيا وأنه يعد لهجوم جديد كوسيلة إلهاء. عن طريق الحديث داخل النفوس، أشعرت المعجبين بكلمات بالذنب القاتل.

في حركة استعراضية، أعلنت يوليا عن قيامها بطقس إلهي.

في الفضاء رأى أهل الأرض يوليا وهي تذبح وهبة، تسيل دمه الفاسد.. ثم تشوي جسده، وتأكله.

هلل الناس، لتخليصهم من رمز للشيطان، رمز بلا قضيب.

*****

الهبة

لم يبك سيد الباشا على مصير وهبة. الموت مرتين ليس فاجعة. لقد حظي بكل فرص الحياة الممكنة. من السهل لوم القائمين على الأمر في الفرصة الأولى، لكن في المرة الثانية اللوم كله يقع على عاتقك.

قال لفاروق علي: لم يكن قضيبه يستحق الموت من أجله مرة ثانية. لم يكن جيدا كما يظن في المضاجعة. ثم داعب قضيب وهبة الحي.

لم يلتفت فاروق لغيرة سيد الباشا من قضيب وهبة. واصل معه تدريبات روحية ظن أنها طريق سيد الباشا للصفاء الذهني للوصول إلى كتاب شمس المعارف وفك طلاسمه. لكن الأمر لم ينجح.

ربما علي أن أستعيد هبتي.

لا أعرف لمَ فكرت في ذلك، أن أقتل قضيب وهبة تماما. آخر ما تبقى من ذكراه حيا. استمنيت على يوليا بلا توقف. سبع مرات مجهدات، حتى أخرجت دما لا مني. أغشي علي.

في غفوتي رأيت هبتي. قضيبي الأصلي، كاشف غريبي الأطوار الموهوب. لقد وصلت هبتي إلى كتاب شمس المعارف. تقرأ كل شيء. تفك الطلسم. يحترق قضيبي كلما أدرك شيئا، ثم يجتمع رماده من جديد، يتشكل من جديد. يخترق الظلمة، السر الأبدي. يهيج، ينتصب، يفرغ حمولة ما عرف. كان يدرك. أما أنا فكنت محجوبا، كأني لا شيء، سوى هبتي.

رأيت يوليا في الكتاب. تافهة، نكرة، لا شيء، مجرد حقيقة تحجبني

عـن الحقيقـة. رأيـت وهبـة. ظالمـا ومظلومـا يبحـث عـن خلاصـه ولا ينالـه، ملعونـا أبديـا. كممثـل، متطـرف، ثـوري، محافـظ، مؤيـد لسياسـات الهيئـة، سـلفي، سـيد للعـالم، زوج إلهـة، فيلسـوف تافـه. رأيتنـي لا شيء صـار شـيئا ثـم لا شيء ثـم شـيئا ثـم لا شيء حتـى صـار الفـارق صفـرا بـين كـوني شـيئا وكـوني لا شيء. حيـاة تتحـرك وسـط بلايـين سـواها، تحـاول طـرد المـوت بادعـاء الحركـة أو الصمـت بالضجيـج. لكـن المـوت يبتلـع كل شيء. سر المـوت كان في كتـاب شـمس المعـارف واضحـا كشـمس.

حيـاتي كلهـا كانـت خدعـة سـابقة التجهيـز. وسـط حيـاة بلايـين سـواها. كل مـا نعـرف كان كذبـة.

وجـدت أوراق يوليـا. كانـت تملـك الحقيقـة التـي عـثرت عليهـا عـبر منـيّ الرجـال ورحيـق النسـاء. الحقيقـة مفزعـة للوهلـة الأولى. تافهـة لمـن تحمـل.

يتجاهـل الجميـع كتـاب شـمس المعـارف، خوفـا مـن دقائـق مـن الفـزع، لا أحـد يقتحـم العقبـة، لا جحيـم خلفهـا، فقـط الخـوف، الهيئـة التـي تضبـط الإيقـاع. إنـه موجـود طيلـة الوقـت، لم يكـن سرا، لكنه عومـل بعمـى، باسـتهانة. كأسـطورة، كنكتـة، ينفـى مـرات بحجـة الاحتـكام إلى العلـم، ومـرات أخـرى بحجـج الاحتـكام إلى الجهـل.

ثقـب المعرفـة الأسـود. أنـا الآن هنـاك. جسـدي محجـوب وقضيبـي يخـترق ويحـترق ويُبعـث. الكتـاب يخلق شـفرته وقضيبي يفكها ببسـاطة.

***

المعرفة جعلتني أملك أرواح القطط السبع. أعادت لي جيشي المسلوب. أساطيلي اجتاحت جزر شمس المعارف. نصف العالم على الأقل صار ملكي الآن.

حاصرت يوليا. أثبت بجدارة أنها ليست إلها. كشفت كيف تلاعبت بالجميع عبر العرض الفضائي. شرحت خاصية الذبذبات الكهرومغناطيسية التي تحدثهم عبرها من داخلهم. وأطلقت موجات مضادة أبطلت حيلتها. فتاة عادية تضاجع وتحيض.

حاولت أن تجد نجدتها عبر طموح شخص تافه كان مجرد شخص ضعيف داخل تحالف في اللعبة سمى نفسه تحالف فرسان العرب. عرض حمايتها. أقنع قائد التحالف بأن يضمها إليه رغم ما في ذلك من مخاطر. ألعاب الغواية أخطر من أساطيلي.

«دوما ما تنجو بفعلتها» صرخت في ديوان ملكي.

كانت ليوليا خطة بديلة أيضا، فعن طريق رجل طموح يدعى مصطفى الجزار، كونت فرقة احتياطية تطورت لتحمي النظام على جزيرة شمس المعارف، وأن ترسخ قبضتها الكبرى على كل شيء، حتى طرق التنفس.

مصطفى الجزار، كان مشاء عاديا، ضخم الجثة، إرث البدوي في أنفه وفي قضيبه. يأكل المنسف والمندي، خشن، همجي النزعة. لم يحمل موهبة استثنائية سوى الفحولة. قناعته أن ذكورته تساوي أن كل شيء يجب أن يكون كثيرا: عدد ساعات المشي، كمية الأكل، عدد غرباء الأطوار الذين يصطادهم، عدد المرات التي يضاجع فيها، كان بدائيا

وفجأ. يصر أن يحمل شيئا من أثر من يصطادهم، فروة رأس أو رمش أو ظفر أو إصبع قدم أو كبد. بيته كان متحفا لضحاياه.

لم يلفت نظر يوليا إلا عندما قدم طلبا لهيئة الأمن القومي للكوكب بتطوير نابين بارزين مكان نابيه العاديين. رفض الطلب. لكنه عاد وقدم اقتراحا بضرورة تمييز من أسماهم بالمشائين الغلاظ عمن أسماهم بالمشائين المخنثين ولو بزي موحد. اقترح فروا يداري العورة والصدر ورمحا يساعده على كشف غريبي الأطوار وتسجيل بياناتهم وقتلهم إن ارتأى ضرورة لذلك، دون الرجوع إلى أحد.

ضاجعته يوليا ومنحته ما أراد على سبيل اللهو.

لكن الجزار أخذ كل شيء بجدية. اختار مجموعة عادية لم تكن من المشائين. لم يشترط سوى ضخامة الجثة والخضوع لتدريبات الطاقة المطلقة، أسماها فرقة «الجدعان» ردا على تسميتها الساخرة بين العامة بفرقة «الانكشاريين».

حولهم إلى كلاب شرسة تتميز بالإخلاص الشديد. تنهش من يشير إليه بطرف إصبعه. كانوا أكثر غلظة وقدرة على استعراض قوتهم في مواجهة غريبي الأطوار، قبل أن يتحولوا إلى قوة ترهب المشائين أنفسهم. قوة طالب أعضاء هيئة الأمن القومي للكوكب يوليا بتفكيكها. لكنها رفضت ما دامت توفر لها الحماية.

لم يشعرها الجزار يوما رغم غطرسته أنه لا يدين لها بالولاء. استخدمته في الإطاحة بمنافسيها من أعضاء هيئة الأمن القومي الكوكب النافذين. أضمرت تدميره عندما يقضي على كل أشكال

المقاومة الخفية لحكمها.

أقنع الجزار يوليا بضرورة أن يزرع رجاله المخلصين محل أفراد هيئة الأمن القومي للكوكب. لم تنجح يوليا في فرض ما أراد الجزار.

أعلن الجزار ذات يوم أنه سيحارب بضراوة حتى طرق التنفس الغريبة. نجح في فرض طريقة تنفس واحدة واكتشاف ملايين الطرق المرفوضة للتنفس.

لكن كلما ازاداد بطشه وإحكام قبضته عبر فرقته على الأمور ازدادت جيوب المقاومة والسخط بين المشائين، وكلما تضاعفت خطط التآمر بين أعضاء هيئة الأمن القومي للكوكب، نشأت محاولات التمرد بين العامة.

عندما هزمت يوليا وصارت وحيدة. لم يتبق لها سوى الجزار وفرقته. قرر حمايتها وأن يعيد الأمور إلى نصابها، مقابل أن يصير سيدا وحيدا للكون وأن تخضع نهائيا لقضيبه كقضيب أخير وأزلي عندما ينتصر.

لم تكن يوليا تملك خيارات أخرى. وافقت ظاهريا. لم تكن لتتنازل عن تحقيقها للمعرفة والوصول إلى الحقيقة بمضاجعة الكون. المني، رعشة اللذة، هي كتابها الأزلي.

قررت في عزلتها التي فرضها عليها الجزار أن تكتب نسختها من كتاب شمس المعارف بنفسها. كل سطر أدركته عقب اللذة. كان ذلك خطرا على كتاب شمس المعارف الأصلي الذي استنجد بسيد، كلما سطرت يوليا سطرا، اختفت معرفة ما من الكتاب الأصلي.

***

كان محمد علي قبل أن ينتهي ذكره على يد يوليا، معجبا بأداء الجزار، استفادته الجيدة من تراث العبيد. هيمنته على كل شيء باستيعابه لتراث أسلافه في الحكم والإدارة، بأن يخلق الناس «بتوعه» ويحطم بهم الآخرين. أن يسحق الأضعف بلا رحمة عبر سلاح الخوف والبطش، وإزاحة منافسيه في الحكم بقوة الحصار والغدر، ومداهنة الأقوى والخضوع الظاهري لسلطته والعمل على إضعافه حتى تحين الفرصة. كان يدرك ببساطة إلى أي مدى كان سيصل الجزار رغم أنه كان في مرحلة بذر بذور لعبته. كان يحدث عنه سيد الباشا قائلا «هذا الولد خليفة جيد لي، أفضل المشائين على الإطلاق».

إعجاب محمد علي بالجزار أغضبني في البداية. لكنه الآن ألهمني الحل.

الجزار الذي أثبت بسالة في الحروب سيطر على تحالف فرسان العرب، وفك حصار سفني على الجزيرة التي تحاصر يوليا.

جيشي احتفظ بقوته أيضا. استطعت عبره أن أجبر زعماء التحالفات الكبرى التي نشأت على أن يقسموا بين يدي قسم الولاء.

كنت أوحد شمس المعارف تحت حكم رجل واحد لإنهاء اللعبة للأبد، بوجود منتصر أخير.

لكن الجزار ظل العقبة الأخيرة. الجيش الأقوى الذي لا أملك هزيمته ولا يعترف بي كحاكم لشمس المعارف.

عدم قدرتي على هزيمة الجزار. كانت تعني أن أترك له الوقت

ليعيد تغيير خارطة التحالفات واستقطاب المترددين والجشعين.

استجاب لنصيحة يوليا برشوة رؤساء التحالفات عبر منحهم القليل من معارف هيئة الأمن القومي للكوكب، أسرارها للخلود. كما ضغط عبر تنفيذ اغتيالات وتفجيرات أحالت شمس المعارف إلى لعبة دموية يموت فيها اللاعبون حقا.

دعوت الجميع إلى مأدبة طعام. أرسل لي الجزار رفضه قائلا: إنه ليس ساذجا ليقع في أقدم خدعة في التاريخ. الخدعة التي نفذها محمد علي من قبل عندما دعا المماليك إلى قلعته وهو يضمر لهم مذبحة.

أرسلت له الدعوة مرة أخرى. أصر على أن أرسل الدعوة إلى ألف جندي من جنوده، كان يظن أني سأرفض. وافقت.

جاء الجزار ومعه فرقته المؤلفة من ألف جندي ووسط أبرز قادة جيشه. كان الوحيد من بين من دعوتهم الذي قد أتى وسط جنود أقوياء مدججين بالسلاح. كان موكب وصوله استعراضيا ومتغطرسا. بدا هو كالحاكم الحقيقي. ظن الأمر علامة خضوع. في الحفل مر كل شيء بشكل عادي: الرقص، الأكل، كان أفضل من حفل ديزني لتعميدي كمشاء عظيم.

أرسلت إشارة أخرى على استسلامي، عندما عُزفت موسيقى اللعبة الأصلية، لا اللحن الذي طالبت بتعميمه على جزر شمس المعارف لتمييز العهد الجديد. عهد المنتصر الأوحد ونهاية اللعبة إلى الأبد.

انتهى الحفل. عاد الجزار بجيشه وهو على يقين تام أن خطوتي القادمة هي التفاوض معه.

عندما وصل إلى جزيرته أدرك أين تكمن الخدعة.

كان جيشي قد احتل جزيرته في أثناء غيابه. جنوده وقادته الأكثر قوة كانوا في حفلي. بينما قادتي يتفاوضون على رشوة القادة الذين تركهم لحماية جزيرته. في أثناء عودة الجزار إلى جزيرته كان يتبعه جيش آخر لحصاره من الأمام ومن الخلف. ذُبح الجزار وقادته وجنوده الألف. وعلقت رؤوسهم على أشجار غابة لتخليد انتصاري النهائي. آفة الخلود؟ لا خلاص منها.

***

يوليا صارت في يدي أخيرا. أتوا بها كما أمرت مسلسلة في قفص.

اللعبة انتهت بانتصاري. هكذا ظننت. لكني فقدت أثر كتاب شمس المعارف تماما.

كان من المفترض أن يظهر لي واضحا في اليقظة لا الحلم. أن أنهي اللعبة وأحرر الجميع من المعرفة الزائفة. لكن لا شيء.

يوليا كانت حبيسة، جائعة، تطلق النكات. كنت أكرهها حقا.

انتصاري هو لا شيء كبير. شيء زائف كالحقيقة. فشل آخر يضاف. انتهاء اللعبة دون الوصول إلى كتاب شمس المعارف يفسد كل شيء، ما أحال الحياة إلى وضع متجمد ممل. الملل والكسل والعجز انتشر بين ربوع الكون.

هبتي لا تزال معها.

عينا يوليا كانتا زائغتين ومستسلمة. تقرض أظفارا وهمية بلا انقطاع. حازت على عطف فاروق علي، بدوت قاسيا في نظره. نفس الخدعة: وجه بريء يخفي شرا هائلا.

«لا فائدة ترجى من حبسها، لن تستطيع إيذاء فرخة» قال فاروق علي. صرخت في وجهه: إنها تحمل هبتي وقضيبي، لا تعرف أي شر استطعت إيقافه بحبسها في قفص.

قال فاروق علي: ربما عليك أن تنسى أن هبتك تستحق العناء. ثم تركني ومضى.

كان علي أن أملك خطة لإيقاف الملل. سأسير عكس الاتجاه. في النهاية لست بطلا لأحرر العالم. فعلت ما بوسعي. كنت أفكر في أن أعيد كل شيء إلى نصابه.

كل الظروف أصبحت مهيأة لأن أصبح رئيس هيئة الأمن القومي للكوكب التي دمرت تماما.

فأثناء انشغالنا بالحرب، استطاع أحد أتباع ديزني المخلصين أن يعيده إلى الحياة معتقدا أنه بذلك ينقذ الهيئة من الخراب. لكن ديزني عاد على هيئة مجنون حاقد، قتل أعضاء هيئة الأمن القومي للكوكب. ثم تركهم ليصبح شحاذا مجذوبا يضع النياشين على صدره في الحسين.

سأؤسس هيئتي الخاصة للحفاظ على الكون، بفلسفة جديدة. سأصعد الصعاليك. سأبني منهم هيئتي وقوانيني. من لم يسنوا سنن الحياة كديزني ومحمد علي، بل من هؤلاء التافهين،

معدومي المواهب، والموهوبين المنسيين. سأصنع نجوما أخرى للعالم. كحقيقة تحجب الحقيقة. نجوم غير متوقعة. نجوم دهسها الاحتقار والنسيان وسوء التقدير.

سأجعل من غريبي الأطوار مشائين ومن المشائين غريبي أطوار. سأصدر نسخة أخرى مزيفة من كتاب شمس المعارف. سأدعي أنها النسخة الأصلية التي اكتشفتها عبر هبتي. سيكفل لي هذا شرعية حكم الكون وتأسيس الهيئة والخلود. هل سأمنح الخلود أم سأدعيه؟

أفقت من أحلامي على صوت أحد حراسي وهو يخبرني: يوليا هربت.

فاروق علي، الكلب، هو من فعلها. الغبي أطلق الشر من محبسه، وجه البراءة خدعه، أمرتهم بإعدامه بحقنة العدم. لن يذكر بعد الآن.

أمرت بإحضار الفرس الذي اغتمنته من جيش الجزار. فرس له مزايا كلب يتشمم الأثر لمطاردة يوليا.

انطلقت على فرسي وسط حرسي الخاص. كنت على يقين من أن الفرس يعرف طريقه. لكنه كان يدور بي في متاهات مخيفة، تلك أجزاء لم أعرف وجودها في شمس المعارف، الجانب المخيف منها، أشباح وجماجم ومسوخ ترغب في قتلي. مذعورا حاولت أن أعود بالفرس، لكنه رفض الإذعان لي وطلب مني أن أثق به.

فر بي من حرسي، صرت وحيدا، تائها وجزعا.

ركض بي حتى أرهقت، أغشى علي مرتين. أفلتنا من الجزء المظلم والمخيف من شمس المعارف. منطقة بلا لون. تصب الهدوء في القلب، ظننتها الفردوس حتى صبت في قلبي الرعب من هدوئها القاتل فظننتها الجحيم. تقلبت بين ظني. لم يتوقف الفرس عن الركض حتى وصل إلى شجرة ضخمة تقطر دما وحروفا غريبة. كانت يوليا هناك تحت الشجرة عارية وسط كومة كبيرة من الورق، تدون بلا انقطاع.

ترجلت من فوق فرسي. منهكا أحاول الصراخ: أريد هبتي. لكنها استمرت في التدوين دون أن تلتفت إلي. اقترابي منها لم يحرك فيها ساكنا. أخذت ورقة. كان عليها آثار مني. كانت تدون كل ما عرفته من المضاجعات. كل سطر كان يمحو سطرا من كتاب شمس المعارف. قرأت ورقة تلو أخرى. كانت تدون أسرارا تافهة وسطحية.

الفرس تركني وعاد من حيث أتى. سأستعيد هبتي مهما كلفني الأمر. استجمعت قوتي. اقتربت أكثر، لم يكن دافعي اللذة أو الشهوة. بل الكره الصافي وحده. لا أرغب في الجنس. سأنهي الشر وأستعيد ما سلبته مني.

أدخلت فيها قضيب وهبة، قضيب الخيانة. لم تحرك ساكنا. المهبل المحرم علي أنار الآن. هنا تحت اللحم، تحت العظم تقع هبتي. بسكين، مزقت اللحم، لم تتحرك، أو تتأوه، لم تتغير ملامحها وسط الدم النافر. سأصير داخلها بالكامل لأبلغ هبتي. تحت اللحم لا

شيء. تحت العظم لا شيء.

أدركت أن جسدي يختفي تدريجيا، تائها، ويدي تقبض على اللاشيء. كنت أذوب، أتفكك، أتحول تدريجيا إلى ذرات. لم يتبق مني سوى يد ظلت تبحث عن الهبة المسروقة تحت اللحم الممزق ليوليا حتى وجدتها. قبضت على هبتي، بلا فائدة ترجى منها الآن.

دفعتني يوليا نحو هلاكي. ابتسمت بلا وجه حين أدركت. يدي اختفت بدورها. رأيت بلا عينين الكتاب الضخم، الذي يبتلع كل شيء، شمس المعارف. تحولت إلى كلمات غائمة في الكتاب، طلسم آخر يحتاج إلى من يفك شفرته. أدرك كل شيء الآن، لكنني عاجز عن أن أبلغ السر لأحد. لا شيء أمامي سوى أفق غائم نحو غابة. لا أعرف إن كانت تخفي جنة دائمة أم وحوشا تسلب الروح.

2015/1/9

أحمد الفخراني.

القاهرة.

للمقاطع المنجمة* لنظريات المؤامرة منقولة بتصرف عن مدونات يؤمن أصحابها أنها النظريات التي تحرك العالم.

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm

سيرة سيد الباشا

رواية

"سيرة سيد الباشا" هي قصة المعرفة المحرمة، الكتاب الملعون الذي يمكنك مصادفته في طريقك، كيف قد تؤدي المعرفة بصاحبها إلى الجنون والشطط التام؟ وكيف يمكنها أن تقودك ربما إلى أعلى نقطة في العالم؟.

«سيد الباشا» عاطل، يكتشف عالما سريا كامنا وراء لعبة على الإنترنت، الحياة أمامه مليئة بالاحتمالات، المقهى الذي يُمضي فيه وقته الضائع ليس إلا واجهة لشبكة كبيرة من المقاهي المتصلة بعالم سريّ، محل الكشرى البريء يتحول في ثانية إلى قاعة مؤتمرات، يظهر على منصتها والت ديزني، مدير جهاز الأمن القومي للكوكب الذي لا يبدو راضيا عن «سيد الباشا»، محمد علي باشا أحد المشائين العظام الذي ليس إلا أحد عملاء الجهاز، يخطف «سيد الباشا» داخل جحيم من نوع خاص، لن يخرج منه إلا بذوبان قطعة من الثلج الذي لا يذوب، سيرة سيد الباشا وعشيقته يوليا المجنونة، هي سيرة الجانب الخفي من علاقتنا بالعالم...

***

أحمد الفخراني
روائي وصحفي مصري من مواليد الإسكندرية عام ١٩٨١.
صدر له من قبل رواية "ماندورلا"

ISBN 978-9-77817-006-1
9 789778 170061 >

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

غلاف: عبد الرحمن الصواف